

حرب الدموع



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الطبعة الثانية 1440 هـ - 2019 م
ردمك 3 - 363 - 79 - 9947 - 978 (ISBN)
التوزيع الدولي للكتاب: مصر، العراق، لبنان، الأردن، السودان

اسم العمل: حرب الدموع

اسم المؤلف: أسى الزهار

تصميم الغلاف: بوغدو محمد إسلام

المدير العام / سميرة منصورى

اخراج: حمودة كوثر

صفحة الدار على موقع فيسبوك:

[/https://www.facebook.com/elmothakaf](https://www.facebook.com/elmothakaf)

الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com

هاتف / فاكس 0666.76.28.50/ 033 85 65 70

المثقف للنشر والتوزيع



بيلومانيا للنشر والتوزيع



جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر



إهداء:

إلى كل الذين يعيشون وهم يعتقدون أنهم على قيد

الحياة...

وأن الموت أبعد بكثير مما يتخيلون...

أقول لهم لا أبدا الموت الحقيقي لا يعني رحيلنا النهائي

من الحياة وإنما هو تلك السنوات وحتى الدقائق

واللحظات التي أضعتها في طريق غير طريق العلم...

وبدلاً من أن نغذي عقولنا وننمي أفكارنا ونوسع

معارفنا في الحياة...

تأقلمنا مع أشخاص جهلة يحومون حولنا لا ليصنعوا

ابتساماتنا ولكن ليعبّدوا لنا طرقاً جميلة للموت في

شوارع الحياة....

أن تكتب هو أن تعيش مرتين:

مرة وأنت تعيش قصة حياتك

ومرة وأنت تعيش قصة كتابك...

أسمى الزهار



كمن يحترف الطريق سارت متمسكة بالشُّعور وكان الحزن وجهتها...
تعثرت بقشة الألم ولم يعد الوقت يصنع ساعتها فعقارب
الساعة قاتلة لا مفر من لسعتها...

وبين الهروب والفرار...

أو الصمود والإصرار استسلمت للبكاء وأبحرت كل دمعة من دموعها
على متن قارب في بحر عيونها ملتطمة بأمواج القدر وفي وقت
كان ثغرها يتأهب لابتسم كان الدمع بعيونها يتأهب ليرتسم...
يحدث أحيانا أن نحب الحياة بكل ما تزويه الشتاء من مطر...
بكل ما يخبرنا به الانتظار عن الضجر...

وبكل ما يفعله الحنين بتذاكر السفر وبينما نحن نسبح في حبها...
ننسى أنه من الممكن أن نغرق في حزنها...

كم أنت مباغطة أيتها الحياة، لقد كانت منذ الصغر بريئة الملامح...
متواضعة حتى الحماقة وكان أكبر طموحاتها هو أن تعيش سعيدة...
لقد تربت عائدة في بيئة مملأها الحب والتواضع لم يكن والدها
فقيرا ولا غنيا...

لقد كان إنسانا بسيطا ومثقفا...

هذا ما جعلها تعلم أن أكبر ثراء يمكن للإنسان أن يمتلكه ليس
بين يديه وإنما بعقله وصدق أحاسيسه ونواياه وأن أكبر فقراء

العالم هم فقراء الفكر والروح فالمال في الكثير من الأحيان يعمي القلوب ويقتل المشاعر إن توفر لوحده دون عقل مدبر ومبصر ودون وجدان مملوء بالحنان من الخبث متحرر... وكيفما لملمت أحاسيسها وحاولت أن تكون قوية كان الحب والحنان بداخلها أقوى هي أنثى مصنوعة من الإحساس وقلبها ليس بسحابة مطرة...

لقد كان قلبها كعصفور صغير يجول بين أغصان جسدها الهزيل ويرتعش كلما مرت عليه أيام الحزن والبرد والشتاء... أيام مملوءة بالقسوة والجفاء هو لا يملك سلاحاً، لقد كان يرقزق وينشد نشيد الراية البيضاء لقد كان ضعيفاً، تنقصه التجربة... ولكن العاطفة أحياناً تجعلنا نختصر آلام السنين وتجاربها بكلمة عطف صادقة فبرغم سنها الصغير إلا أنها كانت تفقه في الحياة أحياناً أكثر من الفتيات اللواتي هن في سنها... لم يكن لديها الكثير في خزانتها لتلبسه...

كان التواضع والبراءة هما أجمل ردائين تلبسهما ولطالما كانت تتعطر بالحب والوفاء ولم يكن منزلها فخوراً ومؤثراً بعناية فائقة كان بسيطاً ومتواضعاً...

كما كانت علاقاتها محدودة ومختارة حيث أنها لم تكن تحبذ

مصاحبة الفتيات الشقيات المتمردات بل أنها غالبا ما كانت تجلس في ساحة المدرسة مع صديقتها الوحيدة سارة لقد تميزت بقله كلامها فهي قليلا أو نادرا ما تتكلم وكثيرا ما تستمع بانتباه وفي عيونها بريق حاد ما كان يوحي بالكثير من الذكاء والفتانة تكفل والدها برياتها بعد وفاة أمها فكانت ترى فيه حب الأب وحنان الأم ولم يكن للغضب أو الحقد مكانا في نفسها... لقد كان شلال الإحساس يتدفق في شرايينها والطيبة تنير عينيها الصغيرتين وفي كل يوم ماطر كثير الرياح لم تكن ترى بطهرها وبراءتها سوى زهرا عاطر يحتاج نفسها أجمل اجتياح لقد كانت تلعب وتلهو وتجري برجليها الصغيرتين وضميرتها الجميلتين اللتان كانتا تداعبان الرياح أثناء جريهما وكانت تحب والدها ذاك الإنسان الطيب الخلق الذي لم تستطع أزمت السنين ومكائدها أن تنصب له كميناً وتحطم جسور الإنسانية في مدائه لم تستطع الحياة أن تقتل فيه روح المبادئ والقيم... لقد كان أصيلا... والأصالة فينا شيء لا يتغير بتغير الملامح والوجوه أو تغير أساليب الكلام...

أصالتنا هي المقياس الحقيقي لرغباتنا في التغيير وخضوعنا في بعض المواقف الحاسمة للقبول أو الرفض...

لقد كان والد عائدة قدوتها...

علمها كيف للإنسان أن يكون بريئاً رغم ما كابده من الظلم والقهر والحرمان وبالرغم من كل الذين أسأؤوا إليه وأرادوا أن يعذبوا بصفحاته البيضاء إلا أنه كان مبارزاً شجاعاً ولم يكن يملك بين يديه سلاحاً لأن الإخلاص والصدق كانا أقوى أسلحته ولم يكن وجهه يحمل كل معالم الرجولة...

لقد استطاع بتميز أن يترك براءة الأطفال في عينيه سارة... كانت الصديقة الوحيدة والوفية لعائدة هي من جنوب الجزائر... من مدينة بسكرة...

مدينة القلوب الطيبة ومدينة الثمار و التمرور...

لقد أحببتها حبا كبيرا...

يخلو من كل الأنانية والمصلحة والمشاعر المزيفة وهي كذلك كانت تبادلها نفس الشعور وبالرغم من أنها من عائلة راقية وغنية جداً، إلا أنها كانت متواضعة وبسيطة وفي عيونها بريق يشبه بريق نجمة في ليل ربيعي معطر بعبق الياسمين كانت مرآتها التي ترى فيها عيوبها وفضائلها وصندوقها الأسود الذي لا أحد يعلم ما تخفيه وما تخبأه عن الآخرين لم يكن صوتها عادياً... لقد كان سمفونية تجلب السعادة في عز أيام الحزن والغضب

لكن أفراحنا أبدا لا تدوم...

بعض سنوات على هاته الصداقة المتينة التي كانت تشبه حب الوالدين لأبنائهم وبعد أن جمعت بينهم المدرسة لمدة 3 سنوات قرر والد سارة السفر وذلك بحكم عمله الدائم والتنقل بين ولايات الوطن، لقد كان الخبر يشبه زلزالا عنيفا يضرب عاصمة الصداقة لم يكن متوقعا أن تغادر بهذه السرعة ولم تكن محاكمة الحياة منصفة حين أقرت بفراق الصديقتين لم تكن عادلة حين حكمت عليهما بغرامة معنوية قدرها دموع وآلام وحرمان ونصف ابتسامة، الأيام أحيانا تتسلى بنا في وقت نكون فيه نظن أننا نتسلى بها...

هي مخادعة لا تهدينا ثمرا إلا وتحرق بعده الغابة...

أحيانا من الصعب أن ننظر إلى النصف المملوء من الكأس لأن النصف الفارغ بعيوننا يفيض فراغا بأعماقنا وأحاسيسنا لا نستطيع أن تجمع الألم والسعادة في كأس واحدة أحراننا هي أحيانا قدرنا المحتوم ودموعنا التي تجري على خدودنا دون سابق إنذار، كيف تفتحت الأزهار في حديقة كان مصيرها الجفاف وكيف سقطت الشتاء على أرض لا تكف عن الدوران والالتفاف؟ حين بكت عائدة مسحت سارة دموعها وقالت لها:

أنت أجمل بكثير حين تبكين...

لقد كانت عائدة تدرك أنها فتاة جميلة ولكنها لم تعلم أنها جميلة حتى البكاء لكنها كانت متأكدة أنها ستفقد صديقتها ولربما سيكون الفراق أبديا...

هي لا تملك أي صورة لها لذا طلبت منها أن تمنحها واحدة ففعلت ذلك لقد كانت تحمل الصورة بيدها وسارة واقفة أمامها كان قلبها يبكي...

تمنت العكس...

لو أنها كانت تمسك سارة بيدها والصورة واقفة أمامها ولكن لا مرد لقضاء الله وحكمته في منازلنا الكثير من الصور ولكن من منها التي إذا وقعت بالصدفة بين أيدينا سنطيل النظر إليها والتأمل فيها وستعود بنا الذاكرة إلى الوراء لتصنع من قلوبنا مزرعة للشتاء ومع كل قطرة مطر تنمو...

تنمو معها دمعة في عيوننا تنزل لأنها تشتت النور وإنما لأنها تعودت عليه لقد عادت اليوم إلى البيت على غير عاداتها تلهو وتلعب ولم تكن ضفیرتاها تتطايران مع الريح... لقد كانتا سحابتين غائمتين لا تستطيع أن تحركهما الريح ولم يكن في وجهها ابتسامة بريئة...

لقد أصبحت تشبه لوحة الموناليزا يمتزج الحزن فيها بالفرح ولم يعد صوت سارة كما كان سمفونية الفصول الأربعة لقد أصبحت السمفونية حكرا لفصل واحد هو فصل الشتاء الغاضب ولم يعد له لحن يهز الفؤاد بحنانه، لقد صار أغنية ملائمة لأيام الحداد...

وفي مقصلة الحياة ليس لدينا الخيار بين الرفض والقبول... نحن مجردون من أولوية القرار ولذلك فإننا نلجأ دائماً إلى الدموع فبالرغم من صغر حجمها إلا أنها تضمد الجراح وتخفف أثقل المتاعب النفسية التي تواجهنا على مر الزمن... هذا ما جعل عائدة تبكي باستمرار، ليل نهار ولم يوقف هذا النزيف بداخلها سوى حزن والدها العطوف الذي كان أول من ضمها إلى صدره بعد أن فقدت والدتها حتى أنها لا تعرف أمها جيداً إلا من خلال الصور وها هي ذي تضع صورة سارة بجانب صورة أمها وتفقد ملكتين في لعبة الشطرنج دون أن تمنحها الحياة فرصة المراوغة والدفاع أو حتى التحدي لقد أحست لوهلة أن الحياة تخطط لها ثوبا لا يلائمها ولا تستلطفه... فيه الكثير من السواد والقليل من البياض فسناها الصغير كان يخدعها ضانة أن أول حفرة تسقط فيها سيكون فيها الموت المحقق...

لم تكن تعلم أن مطبات الحياة كبيرة وكثيرة أحيانا تكون بسيطة وهينة وأحيانا تكون عسيرة دخلت عائدة غرفتها... لم تكن كعادتها مرتبة وجميلة لقد كان هناك الكثير من بقايا حزنها وألمها فوق الوسادة وعلى السرير وحتى على زجاج النافذة لأنها استغرقت الكثير من الوقت في النظر إلى أشجار البرتقال التي كانت تحيط بالمنزل...

لم تكن الأشجار خضراء مورقة ولم يكن البرتقال دائريا وجذابا، لقد كان كل شيء حولها يوحي لها أن الليل يزورها ملتحفا برداء النهار حتى عصفورها الصغير الذي كانت تسهر على عنايته وتغذيته لم يعد يغرد كما سلف...

لقد أصبح يشبه الطائر الحزين، الحيوانات أحيانا تحزن لأحزاننا وتبكي لبكائنا دون أن نشعر أو ندري...

فتحت خزانتها لتغير ملابسها، خطر لها أن ترتدي شيئا أسود اللون لكنها لم تكن تملكه...

لم تكن حزينه وكفى...

لقد اتخذت من الحزن قلادة في عنقها وسوارا في معصمها... لقد جعلت منه ظلا لها يرافقها حيث تذهب أو تجيء لقد اتخذته وجهة لطريقها...

وكم كان صعبا ومتعبا هذا الطريق...

جلست على مكتبها حملت قلمها...

فكرت في أن تكتب رسالة وداع وبالرغم من أن الوداع كلمة كبيرة على فتاة في الثالثة عشر من عمرها إلا أن براءة المشاعر فيها كانت أكبر بكثير كتبت تقول: صديقتي... أنا لن أقول لك وداعا كنت ستغادرين أو سترحلين، لأنك قابعة هنا...

بالقلب تسكنين...

هل تعلمين كم أحبك...

أم أنك تجهلين؟

لقد كانت بضع العبارات القصيرة هذه رسالة طويلة بالنسبة إليها وأحاسيسها لم تكن طفرة في عالم الشعور...

لقد كانت تتحلّى بنوع نادر من الحنان وهذا ما ورثته عن والدها ياسين لقد لاحظ ألمها وحزنها وغياب الابتسامة عن شفتيها لكنه لم يكن يملك شيئا يواسيها به سوى قوله أنها ستلتقي في حياتها بالكثير من الأصدقاء ولطالما فقد هو أصدقاء أحبهم وآخرون أحبوه لكنها الحياة لم تمنحه فرصة استقرار الصداقة معهم...

لقد كان يخفف عنها ويواسيها...

يضمّد جراحا كادت للتو أن تختفي بعدما فقدت أمها إلا أنها عادت لتفتح من جديد استيقظت ذات صباح كعادتها... راحت تتفقد عصفورها الجميل إذ بها تجده ملقى في قفصه جثة هامدة، تفقدت أنبوبة الماء فوجدتها فارغة لقد نسيت ملاءها لثلاثة أيام متتالية، كانت غارقة في دموعها في الوقت الذي كان يبحث هو عن قطرة ماء تروي عطشه لم تعرف ما الذي تفعله أو تقوله، كانت الكآبة تلتهم وجهها وعيناها لم تعودا صغيرتين، لقد أصبحتا كبيرتين كبر الحادثة، ولم يعد لها لسان ينطق بكلمة لقد اختزلت كل الكلام في دمعة صامته، ويا ليتها كانت مسافرة من عيونها وبالغة ذلك المنقار الصغير الجميل لهذا العصفور المسكين البريء كل كلمات الوداع تبعثرت ولم تعد تتفع لأنه غادر إلى الأبد...

لقد قتله النسيان لقد كان مصدرا لسعادتها وفرحها ولطالما أطربتها أناشيده لكننا أحيانا حين لا ندرك قيمة الأشياء التي نمتلكها نستطيع أن نخسرها بسهولة ظنت أنها قتلت حين سافرت سارة لكنها أصبحت قاتلة دون قصد دون تعمّد... لم تكن تدري أنها بكت قدرا نسجته لها الحياة والآن هي تبكي قدرا صنعته بنفسها...

لم تعد دموعها تكفي للبكاء على قدرين شرسين متزامنين
مرضت لعدة أيام وتصبب جبينها عرقاً، لم تعد تقوى على
النهوض ولا على الذهاب إلى المدرسة...

لم يجد لها والدها حلاً سوى أن يذهب إلى السوق ليشتري لها
عصفورا آخرًا...

لربما سيساعدها على النسيان دخل عليها وهو يحمل قفص
العصفور مبتسماً وهو يقول:

من هاته الجميلة التي تبكي والدموع في عينيها؟ من هاته الفتاة
التي تظن أنه لا عصفور لديها؟

قامت من فراشها والعرق يتصبب من جبينها والسواد يحيط
عينيها ونظرت إليه باستغراب يمتزج بفرحة صغيرة قائلة:

من أين لك هذا العصفور يا أبي؟

قال: لقد اشتريته لك وأعدك أنك مثلما ستحبين هذا العصفور
ستجدين صديقة تحبينها أكثر مما أحببت سارة..

ابتسمت وقالت:

لربما يا والدي سأحبها أقل أو أكثر منها لكنني لن أحبها
أبداً بالشكل الذي أحببت به سارة، تهتدت قليلاً ثم أمسكت

بالقفص ونظرت إلى أنبوبة الماء فهي ممتلئة...

إلاّ أنها كانت في نظرها فارغة أكثر مما ينبغي حملتها وذهبت بها إلى الحمام، أفرغتها وأعدت ملاءها، لقد فعلت هذا لأنها ظلت لوقت طويل ترسم أنبوبة الماء في مخيلتها هذا ما فعله بها الضمير، لقد جعلها تؤنب نفسها من جديد، لربما أرادت أن تكفر عن ذنبها وتتصالح مع نفسها وتستغفر الله من هذا الذنب الذي اعتبرته عظيماً لقد كانت أنانية بفعلتها وبالغت في حزنها ولكن ضميرها وإحساسها المرهف جعلها في قمة الإنسانية لربما أظلت الطريق ثم اهتدت .

في الحياة نخطئ أحياناً لكن يجب أن نغضب ونحاسب أنفسنا كي نتعلم ونستفيد من تجاربنا ونتمكن من تصحيح الخطأ وهذا لا يتم سوى بتأنيب الضمير، كان والدها كثير القراءة والمطالعة لذلك كانت تتوفر لديه مكتبة صغيرة بالبيت تجمع بين كتب التاريخ والأدب والعلوم والموسيقى واللغات وحتى كتب السياسة والاقتصاد ولم تكن ساعات اليوم تكفيه حتى يطالع كما ينبغي، ولطالما أطال السهر في إتمام رواية نالت إعجابه دخلت عائدة على والدها وهو جالس على مكتبه فوجده يقرأ كتاباً تبين لها من طريقة حمله أنه سيعانقه، لقد كان عنوانه الإنسانية...

طلبت منه أن يعيرها إياه بعد إتمام قراءته فقال:

هذا الكتاب قيم يا ابنتي إنه يتحدث عن موضوع لطالما عانت منه البشرية واقشعرت له الأبدان التي تخاف الله...

أما أنت فما زال الوقت مبكرا عليك كي تقرئي هذا النوع من الكتب. لقد كان هذا الحديث أشبه بخطاب سياسي لفتاة في سنها وقفت أمام رفوف المكتبة تتأمل الكتب المصفوفة فقالت: هنا يا والدي كتب رقيقة وأخرى غليظة كذلك منها كبيرة الحجم ومنها الصغيرة، إنها جميلة وتوحي بالبرقي ابتسم والدها ابتسامة عريضة وكانت عيناه أشبه بقمرين في أشد استدارتهما قال لها: « هذا بالنسبة لشكلها الخارجي تصوري تنوع موضوعاتها وكلماتها وعدد صفحاتها وحجم المنفعة التي نجدها فيها إذا حرصنا على القراءة» ثم أضاف: قال الله تعالى: «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» في هاته الأحيان طرق الباب، ذهبت عائدة لتفتحه فإذا بها عمته نجبية أتت محضرة معها قدرين مملوئين بالطعام يكفي لأسبوع، استقبلها الأب كعادته وشكرها قائلاً: «جزاك الله خيرا يا نجية أنت المثال الحقيقي للأخت الطيبة».

فردت عليه: «أنا أشبهك يا أخي ولكن...» قاطعها لسبب

معين، كانت ستقول كلاما ما لم يكن يريد أن تسمعه عائدة لكنها أمسكت بعائدة قائلة: «ألم يحن الأوان يا صغيرتي أن تنصحي والدك بالزواج، فهو بحاجة لإمرأة ترعى شؤونه وتسانده في أزمت حياته وتساعده إذا مرض». لقد كان وقع الكلام مرا على عائدة هي لا تستلطف فكرة زواج والدها من امرأة أخرى لطالما وعدها بأن مكانة أمها مقدسة في قلبه لا تستطيع أي امرأة في الدنيا أن تحل مكانها...

كان بداخلها قلب يبكي ويتألم والحيرة تملأ عينيها ولم يعد فم نجية ينطق بعبارات لقد أصبحت بندقية مصوبة نحوها وكلماتها رصاصا يتبعثر في أنحاء جسد عائدة لقد كان هذا بالنسبة إليها القتل المتعمد للإنسانية.

لم يعد بداخلها شعور جميل تجاه عمته...

لقد مات بمخيلتها ذاك الإحساس بالأمان والحب الذي كانت تكنه لعمتها...

كم هي صعبة ومتعبة هاته الحياة...!

سرقته منها صدر أمها الحنون وأخذت منها صديقتها سارة التي أحببتها بجنون وانتزعت منها عصفورها المسكين وها هي الآن تكشف لها عن الدور الجديد الذي تمثله نجية عمته والذي

لا يلائمها إطلاقاً، فعمتها لطالما مسحت دمعها وخفت روعها وحضرت طعامها وغسلت ثيابها من الواضح أنها لم تعد تقدر على فعل ذلك خلعت نجية ثيابها وارتدت ثوبا آخر ترتديه عادة من أجل التنظيف، أحضرت دلو وماء وبدأت عملها كعادتها كي تعود سريعا إلى زوجها وأولادها الأربعة فإذا بعائدة تفاجئها هي بدورها بمقدمة أخرى لهذا الكتاب الذي فتحته عمته دون أن تدرك حجم الخسائر التي خلفتها بأحاسيس عائدة نظرت عائدة إلى عمته بنظرة حادة نوعا ما قائلة: أنريكي عنك هذا... من اليوم فصاعدا سأتولى تنظيف المنزل لوحدي كما سأتعلم الطبخ وغسل الثياب، استغربت نجية لهذا الكلام...

لأول مرة أحسّت أن الفتاة لن تعد صغيرة، لقد أصبحت كبيرة... وقوية نظرت إليها بنظرة يمتزج فيها الإحترام بالإستغراب وقالت: أنا لم أقل أنك لا تستطيعين القيام بأعمال المنزل ولكنني قلت أن هناك الكثير من الأشياء بحكم سنك لفتي أنت تجهلينها. ردت عائدة ببراءة: وهل هناك في المنزل أشياء أجهلها؟

قالت نجية: «إن والدك مازال صغيرا في السن، من حقه أن يتزوج ويصبح له أطفال سيكونون إخوتك، وستجدين فيهم دعامة وسندا حين تكبرين.

استلظفت عائدة الفكرة...

هي لم يخطر أبداً ببالها أن يكون لها أخ أو أخت تلعب معهم وتشكيهم ألمها حين تغدر بها الحياة فهي ومنذ غادرت سارة أصبحت الحياة في نظرها بحرا من الممكن أن يكون جميلا وممتعا ومن جهة أخرى، من الممكن أن يكون مغرقا ومهلكا... لقد استطاعت سارة أن تملأ هذا الفراغ الذي كانت تعيشه عائدة التي لم تكن تملك أخا أو أختا لقد اعتبرتها أختها، وكما يقول المثل: رب أخ لم تلده أمك.

حيث أنها كانت تبكي لبكائها وتسعد لسعادتها وتشقى لشقاؤها لقد كانت جسدين في نفس الجسد و روحين لروح واحدة، لقد جمعتهم يد الحب وفرقتهم يد القدر، شكرا للعدالة الإلهية التي جعلت الدموع تسقط في انحدار، ولكن دون تعمد واستمرار. لذلك كان ألم الفراق قد بدأ يغترب ولم تعد صورة سارة في مخيلتها كبيرة الحجم وواضحة الملامح، بدأت الذاكرة في عملها على إنقاص كمية الحب الذي كان يتدفق في عروق عائدة وتجعل من ملامحها معادلة قصيرة وبسيطة بعيدة كل البعد عن الصعوبة والتعقيد، هكذا هي الحياة صراع بين الحب والكره، بين السعادة والحزن بين القبول والرفض، بين القسوة

والحنان.. لا وسطية في المشاعر هناك فقط أحاسيس تنام على سرير المرض نخطأ في تشخيصها لربما نظن أنها تعافت لكنها لا تزال مريضة هي فقط من تجعل مشاعرنا تعيش حالة إنقلاب روحي.

لم تكن أحاسيس عائدة مريضة أو مرتشحة...

لقد كانت تعاني نوعا نادرا من انفصام الشخصية هذا ما جعلها تشك في حب عمته لها همت عائدة في غسل الأواني وهي في حالة من الشرود العابر الذي يتتابنا أحيانا حين تصبح كل الأشياء أمامنا تشكل مسألة عويصة يصعب علينا حلها سقط صحن من يدها فارتبكت قليلا، انحنيت لتجمع أجزاءه نظرت وراءها فإذا بعمتها تحيبتها بنظرات الاستغراب والحيرة لم يخطر ببالها شيء سوى أن عمته سوف تؤنبها

وستكون الفرصة سانحة لإعادة فتح موضوع زواج والدها الذي لم تكن تود سماعه للمرة الثانية، إلا أن عمته لم تقل شيئا لم يكن لنجبية أطفال بنات كانوا كلهم ذكور هذا ما جعلها تحن وتعطف على عائدة بقلب صادق وحنون بقلب مرهف ورؤوف نطقت قائلة: عنك يا عائدة سأتولى جمع الزجاج، ابتعدي قليلا كي لا تصاب يدك بجروح...

ابتعدت عائدة قائلة: «أنا لم أشعر به حين سقط من يدي،
لقد كنت شاردة الذهن قليلا».

ابتسمت نجية وقالت: «حين كنت في مثل سنك أتذكر أنني
كسرت عددا كبيرا من الأطباق والأكواب في كل مرة أغسل فيها
الأواني» ردت عائدة:

«أفهم من هذا الكلام أنني قد ورثت هذا عنك يا عمتي»
قالت نجية: لا يا حبيبي نحن البشر لا نكسر الصحون بالوراثة
نحن نكسر القلوب بالوراثة.

لقد كان وقع هذه الجملة مثيرا لدى الفتاة أحست لتوها أن
بداخل عمته الكثير من الشعور وبذاكرتها الكثير ممن استطاع
أن يحطم جسور الحب بداخلها ليتمكن من العبور لوهلة
تخيلت أن عمته زهرة بيضاء مزروعة في مغارة مظلمة شديدة
السواد.

بالرغم من جمالها إلا أن الظلام الحالك للمغارة كان يعبث
ببهائها وروعته قالت لها: إن رابطة الدّم التي بيننا يا عمتي
وعدد السنوات التي عرفتك فيها جعلتني أحس بك بداخلك
الكثير من الأطباق المكسرة...
أقصد القلوب المكسرة.

ضحكت نجيبة وقالت: أنا لا أملك سوى قلباً واحداً يا عائدة هو قلب رهيف وضعيف وكان من السهل جدا جرحه وكسره وحتى إهانتة كما كان له هو أيضا حرية النسيان وحب مسامحة الآخرين.

قالت عائدة: وهل ينسى القلب يا عمتي ويسامح؟

ردت نجية: المؤمن الحقيقي يا عائدة أبدا لا يحقد، هو دائما يواجه أعداءه بابتسامة صادقة وكلمة طيبة.

عانقت عائدة عمته وبكت لقد كانت تبكي بمرارة وألم... وكانت عيناها سحابتين غائمتين ترسمان لوحة ماطرة على وجنتيها الصغيرتين ولم يعد صوت بكاءها عادلا في وقوعه على الآذان، لقد أصبح يعتمد الاحتراف في إزعاج الآخرين لم تستطع نجية إبعادها عن صدرها، لقد أحست أنها ظلمتها بعض الشيء.. فعائدة ما زالت صغيرة على معارك الحياة، انتصاراتها وانكساراتها، مسالكها الوعرة وانحداراتها ولم يعد صدرها يتسع لكل هذا البكاء، لقد كانت رسالة الحزن التي كتبتها عائدة على صفحات قلبها طويلة ولكن خطها لم يكن مفهوما لقد كانت نصوصها مجموعة مبعثرة من الأسئلة كتلك التي تطرح في الامتحانات. بالرغم من هذا إلا أنها مسحت دمعها قائلة: لا تبك يا صغيرتي كوني أقوى من الألم...

ردت عائدة قائلة: لطالما قال أبي أنّك كنت غالبية على جدتي وكنت البنت المفضلة لديها وها قد عرفت الآن أنك تحتاجين إلى صدر عطوف تشكين إليه همك مثلي أنا بعدما توفيت أمي وجدتي، تههدت نجيبة وقالت: المشاعر التي نكتمها في صدورنا ولا تبوح بها تقتلنا آلاف المرات، هي الوجه الحقيقي لبؤسنا وشقاءنا وقوة بشاعتها هي التي تحدد قدراتنا على الصبر والتحمل، لم يبقى لعائدة أن تقول شيئاً أمام هذا الجدار الذي كسرتة عمته لتكشف لها عن عمق أحزانها ومدى الإساءة التي تعرضت لها خلال حياتها، لم تعد الأيام كما كانت وردة معطرة أو صديقة مسافرة لقد أصبحت كل المشاعر الجميلة تسافر نحو البشاعة، ولم يعد الزجاج المكسور يستطيع جرحنا بل أصبح هنالك الكثير من مقالب الحياة التي تكسر مشاعرنا وتخرب قيمنا وتقضي على الإنسان الذي فينا، أكملت عائدة عملها، ذهبت إلى العصفور لترى إن كان له الماء في الأنبوبة وألقت نظرة خاطفة على والدها فإذا بالكتاب لا يزال في يده هو كعادته لا يحرك ساكناً إذا أمسك بكتاب بليغ الأهمية قالت له: تعال لتتناول الفطور معنا يا أبي.

فرد قائلاً بابتسامته المعهودة: أنا قادم يا ابنتي.

لم يكن والد عائدة رجلا عاديا لقد كان رجلا تمتاز فيه الكثير من الصفات الفاضلة كالشرف والنبيل والأصالة، وكان دائما يقول أنه إذا قابلنا الإساءة بالإساءة فمتى ستنتهي الإساءة، لقد كان عفوا يحترم الجار وكبار السن ويكرم الضعيف والمحروم وينصف البريء والمظلوم كان صدق الشعور رأس ماله وذلك بالنسبة إليه ثروة لا تعد ولا تحصى، والأهم من ذلك أنها لا تباع ولا تشتري أما أخته نجبية فكانت تعيش مع زوجها وأولادها وحمايتها التي كان أبسط ما يقال عنها أنها شريرة لم تكن تكف عن إيذاءها بالقول والعمل والتعمد في الإساءة لقد كان الجهل والفقر المدقع الذي عاشته في صغرها يعميها لم تكن طيبة مع نجبية ليوم واحد لقد كانت سيئة الطبع والطباع، هي أبدا لا تشبه النساء الجزائريات الطيبات بطبعهن كأنها آتية من كوكب آخر لطالما كانت أم عائدة تذكر حمايتها بالخير فهي لم تر منها إلا ما يريح النفس ويرضيها كما كانت تناديها أمي، ولطالما أحست أنها أم ثانية لها لم تكن أبدا عجوزا شمطاء ولم يكن لوجهها ملامح المرأة الطاعنة في السن لقد كانت ضحكها متناغمة كأغنية عاطفية وكانت عيناها بريئتان بلمعية مبالغ في جمالها كما كانت أنيقة كفتاة في عز شبابها وأنوثتها

لقد تعودت نجيبة أن ترى الاحترام المتبادل بين زوجة أخيها المتوفاة وأمها لذلك كانت حمايتها بالنسبة إليها معاهدة تنص على العداوة ولا مجال لإتفاقية الصلح في بنودها وبينما كان ياسين مستغرقا في القراءة إحساسه لم يكن غائبا عن المحادثة التي دارت بين أخته نجية وابنته الصغيرة عائدة دخل المطبخ تناول الملعقة وقطعة من الخبز وهم في الأكل لقد كانت شربة الفريك التي أعدتها نجيبة لذيذة جدا...

فهي كعادتها تتقن الطبخ الجزائري الأصيل كالشوربة والحريرة والدجاج بالزيتون والكسكسي والمثوم وخبز المطلوع... الخ هو كعادته يبدأ كلامه بابتسامة مباغثة قائلاً:

«لم أعد أدري من يأكل من؟ هل أنا الذي أكل الشربة بملعقتي أم أنها هي التي تلتهم عقلي وتفكيري بطيبتها ولذتها. ضحكت نجية وقالت لعائدة: هل تسمعين يا عائدة هذا الشعر الجميل الذي يقوله ياسين.

ثم أضافت: طالما كنت مجاملا بارعا شكرا يا أخي.

ابتسمت عائدة وقالت: يجب أن أتعلم منك الطبخ يا عمتي خاصة الشوربات والمعجنات...

قاطعها والدها قائلاً: الرجل بطبعه يحب المرأة التي تطهو جيدا

لطالما كانت أمك طباحة ماهرة وربة منزل بامتياز، فمنذ تزوجنا لم تطأ رجلاي مخبزة قط، كانت دائما تصر على تحضير الخبز بنفسها وتقول إن المطلوع الجزائري ألد بكثير من خبز المخبزة. تتهدت نجيبة وقالت: الأوفياء دائما يرحلون تاركين وراءهم عطرا جميلا يدوم لأعوام، بذكراهم تتعطر أفواهنا وترتبك مشاعرنا خجلا واحتراما لأرواحهم الطاهرة...

ساد بعض الصمت...

وانحنى عائدة رأسها حتى كاد شعرها يلامس صحنها وكان حزنها واضحا وضوح القمر، ليلة العيد لقد تعكر صفوها وتساقطت شتاء الماضي في حاضرها.

ها هي الآن تدرك حجم اليتيم الذي تعيشه، تمنى لو هلة لو أن أمها تعود من جديد لتحضر هاته الشوربة اللذيذة تمنى لو كانت جالسة بجانبها...

لقد أرادت أن تقول شيئا لكن تضارب الكلمات على حلبة لسانها جعلها تتعطل الصمت حذاء لإحساسها بأن الطريق كان صعبا ومسالكة وعرة هي لا تريد البكاء من جديد لقد أصبحت تتعود أحيانا على أن تنافس صلابة الحديد...

أن لا تكون شمسا وإنما تكون وجهها آخرا للجليد... قامت

وخرجت من المطبخ متجهة إلى غرفتها إلا أنها غيرت وجهتها متجهة نحو غرفة والدها لقد كانت غرفته بسيطة جدا، لم تكن كبيرة ولم تكن صغيرة كانت كلها مصنوعة من الحطب منقوشة ببعض الأزهار والأوراق وكان السرير مغطى بلحاف أزرق اللون به بعض الورد البيضاء الصغيرة الحجم، كما كان بها رفا يضع فوقه نظارته وبعضا من كتبه وكراسا وقلما شدها الحنين إلى صورة والدتها المعلقة على الجدار فجلست على حافة السرير تتأملها، اغرورقت عينها بالدموع وقالت في نفسها: كنت ستكونين أجمل يا أمي لو أنك بقيت معنا أنا وأبي... ظالمة هي الأقدار التي أبعدتك...

هي سعيدة بيتي، بحرمانى يبكي قلبي كثيرا عندما أسمع أحدهم في المدرسة يقول أمي فأتساءل لماذا قدر لي أن أحرم من كلمة أمي إلى الأبد... لماذا يموت أشخاص ويبقى آخرون وكيف لي أن أكمل المشوار وأنا منذ البداية لم أمنح حق الاختيار. لم يعد للدمعة أن تختفي خلف العيون...

لقد انتصر الحزن على ابتسامتها في أول مباراة تخوضها ضد الحياة لم يكن بفريقها عشر لاعبين وحارس مرمى وآخرون في الاحتياط لقد كان الكل واقفا في المرمى ينتظر بحرص ومرارة الأهداف التي

تصوبها الحياة وتهتف لها الأقدار وتمطر من أجلها العيون. أحسّت نجيبة بالإضطراب الذي عم في أرجاء المنزل والذي كان سببه تذكّر والدها لزوجته المتوفاة ذهبت تبحث عنها فلم تتوقع وجودها في غرفة والدها ألقت نظرة خاطفة على الغرفة، فإذا بعائدة تبكي يتمها ووحدها جلست إلى جانبها ضمتهما إليها وقالت بصوت دافئ: لا تحزني يا عائدة ولا تجزعي ولا تقنطي من رحمة الله واحمدي الله واشكريه كثيرا..

مسحت عائدة دمعها نظرت نظرة استغراب وألم إلى عمتهما، وابتسمت ابتسامة لا تخلو من العبرات وقالت: الحمد لله على كل شيء وما كادت تكمل حديثها حتى دق الجرس: ذهبت لتفتح الباب، إذ هي المفاجأة.. إنها سارة صديقتها بشحمها ولحمها واقفة عند الباب، لم تعد قدماها تحملانها من شدة الذهول والحيرة... لم تكن تعلم أن الأيام ستضحك في وجهها من جديد...

عانقتها قائلة: لربما أذعنتم عن فكرة السفر وسنبقى صديقتين إلى الأبد. ردت سارة: لا يا عائدة... لقد سافرنا ولملنا كل أدواتنا وأثاثنا عدنا إلى بسكرة لكن أمي نسيت بعضا من حاجياتها فجئنا لنسترجعها وكانت الفرصة السانحة لي كي أراك من جديد. طلبت عائدة من سارة الدخول لكنها أبّت بحجة أن والدها

ينتظرانها في السيارة قبلتها وأهدتها سوارا جميلا قائلة: احتفظي بهذا السوار وتذكيرني به لا تضيعيه فهو عزيز عليّ جدا، وعدتها عائدة بالمحافظة عليه ما دامت على قيد الحياة وقالت: السوار الحقيقي يا سارة بداخلي هو يحيا بحياتي ويجري في عروقي ويتنفس بأهاتي...

هو لا يضيع...

لديه بداخلي حصن منيع. غادرت سارة مخلّفة وراءها عائدة تستجمع بعضا من أحاسيسها وتقاوم بعض الضباب الذي عم على شوارع يقظتها...

هي لا تصدق حتى الآن أن من كان يتكلم معها هو سارة لقد خيل إليها أنها تهذي...

إنّها حمى الصداقة التي تباغتها بحرارتها المفاجئة، لبس ياسين معطفه وقميصه وجلس على مقعد كي ينتعل حذاءه طلب من عائدة أن تغير ثيابها هي الأخرى كي ترافقه لقضاء بعض الحاجيات من السوق موصلا نجية إلى منزلها في طريقه فرحت عائدة بخروجها من المنزل شعرت أنه الوقت المناسب لتغيير الجو. اقترح عليها والدها الذهاب إلى المكتبة لاقتناء بعض الكتب فوافقت بسرور واضح، فنحن لا نرث من آباءنا ملامحهم

طولهم قصرهم جمالهم وبشاعتهم ، نحن نرث حتى كرههم للأشياء وحبهم ، نرث الكثير من طباعهم هذا ما جعل عائدة تحب القراءة والكتابة بشكل كبير وهما بصدد الدخول إلى المكتبة إذ بأحوال الجو تتغير من مشمسة إلى ممطرة وبعض السحب الرمادية اللّون غطت سطح المدينة لم يكن الوقت المناسب لهذا الحال الشتوي بالنسبة لعائدة ، ساورها بعض الاكتئاب فلطالما كان الجو غائما في مزارع قلبها الصغير البريء ولطالما ذكرتها الشتاء بأيام البكاء لا حظ والدها هذا التغير في مزاجها فقال: إنما سحابة عابرة يا ابنتي، سينقشع الضباب مرسلًا أشعة الشمس الصفراء لينير كل شبر من هذا الوطن العزيز بلد المليون والنصف مليون شهيد.

لقد كانت هذه الكلمات تخرج من فم والدها كأنها سحابة مزهرة مقابل كل قطرة مطر كانت تسقط عليها زهرة معطرة كانت تخرج من لسان والدها، هي فتاة تحب الجزائر وتقدر كل حبة تراب تمشي عليها.

لكي نحب الوطن لا يلزمنا الكثير من السنين أو القليل نحن نحب الوطن بأفئدتنا التي تبكي عليه وليس بعدد خطواتنا التي مشت وركضت ولعبت عليه تحيرت عائدة لهذا الكلام الذي

قاله والدها هي لم تعهده محاضرا بارعا في مادة التاريخ تساءلت ما الذي جعله يذكر تاريخ الجزائر في يوم كهذا... سألته قائلة: بالرغم من صغر سني يا أبي لكنني أحسست أنك تمرر لي رسالة تريد أن أقرأ محتواها فما الذي أثار بقرارات نفسك هذا الحديث عن ثورة الجزائر.

ابتسم ياسين ورد عليها بفرح ملحوظ: من الجميل جدا أن تتمتع بالفطنة رغم البراءة، ثم ردّ قائلاً: اليوم هو ١ نوفمبر في مثل هذا اليوم اندلعت الثورة الجزائرية من عام ١٩٥٤ يومها كانت الحرية شعارنا والوحدة قرارنا. لاحظت عليه عائدة بعضا من الحزن يتخلل السعادة التي كانت ترتسم على شفتيه سابقا كان هناك كلام بعينيه...

كأنما هو يقول: يا للأسف...

قالت له: لماذا تتأسف عينك يا أبي؟

رد قائلاً: هناك الكثير من المواطنين الذين تنقصهم الكثير من الوطنية يحملون في بطاقات تعريفهم هويتهم الجزائرية دون أن يدركوا ما معنى الهوية. سألته بتلهف شديد لمعرفة جوابه: وما هي الهوية يا والدي؟

قال: هي أن تحبي وطنك من الأعماق وأن لا تستبدلي هذا الحب

الكبير بكيس من المال الوفير، ثم أضاف: من أجل الجزائر مات الكثيرون كي نحيا ونعيش نحن وبكى آخرون كي نبسم ونضحك نحن، يجب أن نكون أوفياء لأرواح شهداءنا الطاهرة. لقد كبر هذا الرجل في عيون ابنته فزادته حبا وتقديرا واحتراما هو نقي ونظيف، هذا الوالد الطاهر العفيف هاته العملة النادرة التي لو وجدناها من الأحسن

أن نخبأها في العيون، إنه رجل وفي لا يستطيع أن يخون.

تابعت عائدة ووالدها السير في أرجاء المكتبة، لم تعد تفرق بين الكنز المصفوف على الرفوف والكنز الذي يمشي إلى جانبها اشترى ياسين العديد من الكتب منها للتاريخ وللأدب وأخرى للعلوم والتربية الإسلامية خرجا من المكتبة متجهين إلى الحديقة المجاورة توقفا عند بائع الحلوى ليشتري لها علبة شكلاطة وعلبة صغيرة للعصير إذ به يلتقي بصديق قديم له يدعى شعبان، لقد كان شعبان وسيم المظهر وحسن الطباع والسلوك جلست عائدة على أرجوحة في الحديقة متأملة والدها وصديقه يتبادلان أطراف الحديث.

قال ياسين: أين أنت يا رجل هذه مدة طويلة لم نلتقي كعادتنا يا شعبان؟

رد شعبان قائلاً: لقد كنت منشغلاً بمرض أُمي الطاعنة في السن، لقد أصابها مرض بالعظام ما جعلها لا تستطيع الوقوف أو السير أو الصلاة.

قال ياسين: حفظها الله لك يا شعبان وحفظ كل أمهات المؤمنين ستشفى بإنشاء الله.

رد شعبان: إنشاء الله، وكيف حال الصغيرة عائدة؟

ردّ ياسين: هي كما تراها هناك تتأرجح وكذلك مشاعرها تتأرجح بين السعادة والحزن أحياناً وبين اللهو والدراسة أحياناً أخرى تعلم حال الصغار.

ضحك شعبان ضحكة صغيرة وقال: لماذا لم تتزوج يا ياسين بعد وفاة أم عائدة لربما ستجد المرأة الصالحة التي تواسيك في نكباتك وتحرص على سعادتك وراحتك فعائدة ستكبر في يوم ما وستتزوج وتصبح لها حياتها الخاصة بها.

ارتبك ياسين لهذا الكلام وقال: أنا لا أريد من هذه الحياة شيئاً سوى أن أرى عائدة سعيدة...

لقد أوصتني المرحومة عليها قائلة أن أمنحها كل الحب الذي بداخلي دون أن ينازعها عليه أحد. طأطأ شعبان رأسه وقال: الحمد لله على كل شيء ليس اليتيم الأب والأم يا ياسين وإنما

يتيم العلم والأخلاق.

تابع ياسين وشعبان حديثهما، لقد كانا أشبه بصديقين صغيرين في السن... كانت ملامح البراءة والطفولة تبدو على وجهيهما. أن تكون أقوى من الحياة، هذا يعني أن نبتسم حتى النهاية، أن لا نبكي لأتفه الأسباب، أن لا نبذر دموعنا ونحافظ على صمودنا. أن نتعلم من خسارتنا كيف نرسم طريقًا لنجاحنا ونرمي أحقادنا ومساوئنا لنحتفظ ببراءتنا ومحاسننا كي لا يجد الحزن سبيلا إلى أفئدتنا... عاد الأب وابنته إلى المنزل...

لقد كانت الساعة الخامسة مساء طلب ياسين من عائدة أن تحضر القهوة فهو لا يستغني أبدا عن شربها ابتسمت عائدة قائلة: سأحضر القهوة يا والدي وسأذهب لأراجع دروسي فالامتحانات على الأبواب.

رد ياسين قائلاً: ما الذي ستجنيه من المراجعة الجيدة للامتحانات؟ فردت بسرعة: سأنجح وأتفوق وسأحصل على أعلى معدل وسيفرح أبي بنجاحي.

قال ياسين: الأهم من النجاح هو الاستمرار فيه والمحافظة عليه فالنجاح الذي يليه الفشل عدة مرات هو ليس نجاحا حقيقيا. استغربت عائدة هذا الكلام وقالت: عندما أنجح يا

والدي من الطبيعي أني أوصل النجاح.
 فرد قائلاً: عندما تنجح من الطبيعي أن نصاب ببعض الغرور
 هذا ما يجعلنا نتراجع ونصاب بالفشل، لذلك إذا تفادينا
 السقوط في فخ الغرور سنحافظ على نجاحاتنا.
 لقد كان وقع هذا الكلام مؤثراً على عائدة، أحست كأن هنالك
 فتاة أخرى بداخلها نقول أن الورد جميل لكنه أجمل إذا نظرنا
 إليه وأن النجاح جميل لكنه أجمل إذا حافظنا عليه. ابتسمت
 قائلة: أحبك كثيراً يا والدي وهي بصدد تحضير القهوة
 اكتشفت أن علبة السكر فارغة طلبت من والدها أن يعطيها
 نقوداً كي تشتريه من البقالة المجاورة لمنزلهم والتي لا تبعد إلا
 ببضع خطوات صغيرة اشترت علبة من السكر وهي في طريق
 العودة إذ بها تجد رجلاً متسولاً... حرك منظر هذا الرجل في
 نفسها شيئاً من الطيبة والشفقة التي كانت بداخلها هذا ما
 جعلها تعطيه بعضاً من النقود عادت إلى المنزل والسرور يملأ
 وجهها قالت في نفسها: لطالما قال أبي أن الصدقة تبعد الأذى
 وتشفي المرضى...

ستكون هذه الصدقة كي يحفظ الله لي والدي دخلت المنزل
 نزعته حذاءها واتجهت نحو المطبخ حضرت القهوة وأخذت

فنجانا إلى والدها الذي كان بصدد ترتيب الكتب على رفوف مكتبته المتواضعة شربت هي بدورها القهوة واتجهت نحو الحمام كي تغسل أسنانها...

لم تكن عائدة فتاة طاهرة القلب ونقية المشاعر فقط وإنما كانت نظيفة في مظهرها وملبسها ولم تكن تتفانى عن الاغتسال يوم الجمعة هذا ما أكسبها جمالا طبيعيا وجاذبية ونعومة فائقة لطالما كان حلمها تصميم الأزياء هذا ما جعلها تخطط لدميتها العديد من الفساتين الجميلة وترصدها ببعض اللأئى... لقد كانت بالفعل مبدعة ومتميزة واستطاعت أن ترث عن أمها مريم هذه الموهبة الجميلة.

كانت هناك بغرفتها ماكينة للخياطة تتربص بيديها وتنتظر منهما الكثير لكن صغر سنها ونقص خبرتها جعلها تفكر في الالتحاق بمدرسة لتكوين الخياطين أثناء أوقات فراغها. استيقظت عائدة ذات يوم كانت فيه أشعة الشمس تجوب كل زوايا غرفتها بدفئها اللطيف وكانت الأزهار المعطرة والملونة تملأ الأجواء بعطرها الأخاذ وعبقها اللأمتناهي لتدغدغ أنفها الصغير الذي طالما عشق رائحة الورد قامت فغسلت وجهها ودخلت المطبخ فإذا بوالدها قد سبقها لتحضير القهوة قالت:

صباح الخير والدي فرد قائلاً: صباح الخير يا ابنتي هل نمت جيداً؟ فردت: نعم، لقد أكملت كل المراجعة ونمت دون أشعر. جلست تحتسي قهوتها فإذا بها ترى عمته نجيبة تحمل مكنسة ومنديل الغبار، ابتهجت لرؤيتها فقالت: صباح الخير عمتي لا بد أنني استيقظت متأخرة اليوم، كم الساعة يا والدي» رد قائلاً: إنها العاشرة سأذهب للتسوق... سأحضر بعض الخضر والفواكه واللحم وسأمر على الخباز لأقتني الخبز وسأشتري كذلك الحليب كي تتمكني يا نجيبة من تحضير الفطور.

قالت نجيبة: حسنا يا أخي...

أنت اليوم كسولة يا عائدة على غير عادتك لا بد أنك لم تنام باكراً؟ ردت عائدة: «نعم يا عمتي لقد راجعت دروسي فالامتحانات على الأبواب كما أنني أكملت رسم تصميم جميل. استأنفت نجيبة عملها فإذا بها تحس بشيء من الدوار والألم برأسها كان يبدو عليها شيء من الإرهاق والتعب، نادى عائدة لتحضر لها كوباً من الماء فاستجابت لندائها، أسندتها إلى السرير، قائلة: ارتاحي يا عمتي لا بد أنك متعبة. فردت نجيبة: أردت أن أرى شعاعاً مضيئاً وسط الظلمة وأن أضحك من قلبي ولو لمرة واحدة في حياتي. انتابت عائدة حالة من الصمت الآسر الذي كان

يملاً عينها حيرة ويسجن بشفتيها كل الجمل التي تبدأ بلماذا وكيف وماذا في محاضرة مغلقة لا أشخاص فيها ولا حضور سوى شخص واحد هو عمته المسكينة نجية كبل الحزن ملامحها وقرر الليل أن يحدث انقلاباً على النهار ولم تعد خيوط الشمس الرفيعة الذهبية اللون المعطرة برائحة الورد كما كانت لقد أصبحت أشبه بسلاسل سميقة سوداء اللون مخصصة لسجن الأبرياء لطالما كانت نجية أما ثانية لعائدة ولطالما كان الإيثار من أهم خصالها الحميدة، استجمعت عائدة كل الكلمات الهاربة من قاموسها اللغوي فقالت:

ما الذي يحزنك يا عمتي؟ بالرغم من بساطة السؤال إلا أن الجواب كان الأكثر تعقيداً على الإطلاق تكلمت نجية بصوت خافت قائلة: منذ أن تزوجت لم ينطق زوجي ببنت شفة أحسست من خلالها أنه يحبني لقد كان دائماً يعاملني بقسوة ويهينني ويدوس على كرامتي كأنني حيوان ولست إنساناً لطالما تمنيت عندما كنت في مثل سنك أن أتزوج رجلاً يعاملني بلطف وحنان كما كان والدي يعامل أمي هزّ هذا الكلام عاصمة الحب الكبير الذي كانت تكنه عائدة لعمتها وقالت: فاقد الحنان لا يعطيه يا عمتي فلا بد أن هناك من عامله هو أيضاً بقساوة عندما كان صغيراً

أدمعت عيون نجية واتسعت ولمعة بطريقة غريبة إنها تحس أول مرة كأن عائدة ابنة حقيقية لها تشكيها همومها وآهاتها وتواسيها في لحظات الضعف والوهن قالت: أتذكرين قولي لك عندما كسرت الصحن أننا لا نكسر الصحن بالوراثة وإنما نكسر القلوب بالوراثة، لقد كنت أعنيه فهو عنيف الطبع كأمه لم تكن تعطف عليه حين كان صغيرا لقد ذكر لي يوما أنها انهالت عليه بالضرب حتى كاد يفقد وعيه فأخذه والده إلى المستشفى ولما سأله الطبيب عن كل تلك الكدمات...

اضطر للكذب قائلًا أن ابن جيرانهم هو من فعل ذلك فبالرغم من حب والده له إلا أن قسوة أمه وجفاءها ترك انطبعا واضحا على تصرفاته وسلوكه سكتت عائدة ثم قالت: لم يخطر أبدا ببالي أن هنالك أمهات بهذا الحقد والكراهة والجفاء يا عمتي. تنهدت نجية واسترسلت قائلة: أنسي الكلام الذي قلته يا عائدة أنت صغيرة يجب أن تبسمني فقط، لن أسمح لأحد أن يعكر صفو حياتك ويقتل ضحكاتك ما دمت على قيد الحياة...

بكت عائدة ولم تعد تشعر بالدم يجري في عروقها أحست بمرارة الألم الذي يتصدر الصفحات الأولى في جريدة الحياة التي كانت تكتبها عمته نجية بكت وعانقتها قائلة: إنَّ والدي

دائماً يقول أن لا نقنط من رحمة الله ونستعين على العقبات والصعاب بالصبر والشجاعة وقوة العزيمة والإرادة.

ردت نجية قائلة: والدك ياسين منحه الله أما عطوفة وأب رؤوف وحكيما لطالما كان يحبانه ويكنان له احتراماً كبيراً لأنه كان ولداً طائعاً رحيماً يشفق على الوالدين ويقدر لهما تعبهما ومقاومتهما للصعاب من أجل تربيته تربية حسنة كما وهبته الحياة وأنصفته بمنحه لأمك الطيبة رجاء. اندهشت عائدة كثيراً واختلط عليها الماضي والحاضر والمستقبل ولم يعد برأسها عقل يميز ويفكر ولم تعد تستوعب كيف أن لعمتها أن تخطأ في إسم والدتها مريم. صمدت والخوف يتخلل تقاسيم وجهها الجميل وقالت بصوت يمتزج فيه الاستغراب بالاستفهام هل قلت يا عمتي أن أمي اسمها رجاء؟ لطالما كان أبي يذكرها باسمها مريم أم أنها كانت تحمل اسمين؟ ارتبكت نجية ارتباكاً واضحاً وأصبحت أشبه بقارورة ماء على حافة طاولة توشك على السقوط لكنها تماكنت نفسها وقالت:

سامحيني يا عائدة لا بد أن المشاكل العويصة التي أمر بها هذه الأيام جعلتني أنسى أشياء وأنسى كذلك أسماء ستكون هذه آخر مرة أخطئ فيها صغيرتي أنني أعرف كل المعرفة أن

هذا يمسّ شعورك وأحاسيسك المرهفة. اطمأن قلب عائدة وغادرتها الوسوس غادرت الغرفة مبتسمة لكن شيئاً صغيراً كان يعلق بعواطفها ينبئها بأن كلام عمتهما يخبأ لها الكثير فالزمان لطالما كان مخادعاً بارعاً ولاعباً يتقن المراوغة.

تحت أسوأ الظروف أما عن البصر فهو لا يكفي وحده كي نعرف الحقيقة، يلزمنا الكثير من البصيرة والتمعن وقوة التركيز كي نفهم الحياة ونستوعب دروسها المعقدة دخلت عائدة إلى غرفتها فإذا بها ترى أنبوبة الماء فارغة أدركت أن عصفورها عطشان فسارعت إلى ملأها ثم اتجهت إلى المكتبة أرادت أن تلقي نظرة خاطفة على الكتب التي اشتراها والدها فإذا بها تسمعه يناديها من المطبخ..

لقد عاد من السوق قال لها: لقد أحضرت بعض الحاجيات يا عائدة، إن لم تكوني منشغلة حاولي أن تضعي الأشياء في أماكنها. حملت عائدة الخضار والفواكه وضعتها في الثلاجة مع الدجاج ووضعت الخبز في سلته الخاصة فإذا بنجية تقول لها: اليوم سنحضر الفطور معاً، ابتسمت عائدة أحضرت ما نسّميه في الجزائر الجفنة أو القصعة وهي على شكل صحن كبير مصنوع من الحطب لتحضر الكسكسي يوم الجمعة.

اهتمت عائدة بتحضير الكسكسي متبعة الخطوات التي أملتها عليها عمته واهتمت نجيبة بإعداد مرق الدجاج اللذيذ المخصص للوضع فوق الكسكسي انتهتا من تحضير الفطور وهما يتبادلان أطراف الحديث الذي يغلب عليه الطابع المرح والفكاهي فنجيبة لطالما حاولت أن تقاوم الحياة بابتسامتها الواسعة وقلبها الزجاجي الذي يسقط آلاف المرات دون أن ينكسر لم يكن زواجه عاديا لقد كان مقاوما للرصاصة الذي تصوبه نحوها الأقدار دون أن تخطئ التصويب دخل ياسين إلى غرفة الجلوس ليستريح قليلا، ليس من عادته أن يدخل الغرفة صباح يوم الجمعة لطالما كان يستحم ويتطهر ويقراً بعض آيات القرآن ويتعطر للصلاة، لكته استلقى على السرير وناد عائدة: هناك في الدرج الثالث من الخزانة علبة حمراء أحضرها من فضلك. ذهبت عائدة لإحضار العلبة فتحت الدرج لكنها لم تجد أي شيء عادت إليه وقالت له أنها لم تجد شيئاً صمت قليلا ثم قال: أخطأت يا عائدة إنها في الدرج الرابع.

ذهبت ثانية وجدت العلبة فأحضرتها وأعطتها لوالدها قال لها: هذه القلادة الذهبية تركتها لك أمك يا عائدة حملت عائدة القلادة فامتزج الفرح بالحزن في نفسها لكن السرور كان أثقل

وزنا من الشجن الذي كان بوزن الريشة المتطايرة فوق هضبة شعورها الرهيف لم تعد القلادة في نظرها صغيرة الحجم وذهبية اللون لقد أصبحت كزهرة تحملها وتشم عطرها وتعطر بها يديها الصغيرتين حملت القلادة ووضعتها بعنقها كأنها علقتها بقلبها تبعثرت أحاسيس الأنوثة بداخلها وتجمعت ذكريات ينمها وطفولتها، ولم تعد تعرف كيف تنتشل أشلاء يُتمها العالقة بقلادة أمها وتحرر أنوثتها من وجع السنين لقد كانت القلادة جميلة وجذابة تحمل قلبا مرصعا بالأحجار أحست لوهلة أن القلب هو قلب أمها فقبله باكية سادت لحظة صمت غامضة نظر إليها والدها وعيناه مملوءتان بالدموع قائلاً: هذه القلادة كانت لأمك يا عائدة ضعيفا في رقبتيك ولا تنزعها مهما كانت الظروف. ابتسمت عائدة ابتسامة أشبه بمجاملة نضطر إلى قولها أحيانا لإرضاء الرأي العام وقالت: حاضر يا أبتى.. أعدك أن أحافظ عليها.

سألها قائلاً: لو أعطوك أموالا طائلة مقابل القلادة هل كنت لتستبدليها يا عائدة؟ فأجابته بالرفض وقالت: أنا لا أستبدل أحاسيسي وذكرياتي بأموال ستزول....

المال يفنى وينتهي والذكرى كالشجرة الشامخة الصامدة أبدا

لا تتحني، ابتسم ياسين ابتسامة عريضة وقال: «هذه القلادة يا عائدة ليست سوى مثالا بسيطا عن الأشياء التي يجب أن نحافظ عليها ولا نستبدلها.

ردت عائدة: مثل ماذا يا أبي؟ فقال: أخلاقنا ومبادئنا وقيمنا ووطنيتنا شخصيتنا وهويتنا... تاريخنا وحضارتنا... كل هذه الأشياء يجب أن نتمسك بها.. لا نتركها وندافع عنها دفاعنا عن بقاءنا ووجودنا. لقد اعتادت عائدة على هذا الرجل الفاضل الشريف الذي هو والدها لم تعد ترى في الحياة أكثر جمالا من الشرف وأكثر ثروة من العلم وأجمل نقاء من السريرة الصافية الطاهرة التي لا يلطخها الدهر ببصماته السوداء.

استمرت عائدة على حالها حتى بلغت سن العشرين لقد أصبحت سيده صغيرة جميلة الشكل كبيرة العينين ورفيعة الحاجبين ذات شعر طويل منسدل على الكتفين متموجا وأسودا كشعر أمها مريم وحريريا ناعما إلا أنها كانت نحيلة بسبب شهيتها الضعيفة تجاه الأكل والتي ترتبت عن حالتها النفسية المضطربة التي لطالما كان سببها الرئيسي هو تيمها وحاجتها الشديدة إلى أمها خاصة في هاته المرحلة من حياتها لم تعد عمته نجية تحضر إلى المنزل كسابق عهدها لقد أصبحت عدد

زياراتها قليلة إن لم نقل نادرة وتدهورت صحة والدها نوعا ما لقد أصيب بارتفاع ضغط الدم الذي يعاني منه الكثيرون من أقرانه لكنه كان ثابتا في مواقفه وحكيما لا تألمه الانتكاسات الصحية بقدر ما تقتله الانتكاسات الأخلاقية التي يراها في طبقة معينة من البشر...

هم ضحية الثورة الصناعية والتقدم التكنولوجي اللذان أساءا إلى النفس البشرية، مقابل القليل من الفوائد التي لا تضاهي الإنسان في جماليات روحه وكمال عقله وأحاسيسه التي لا تقدر بثمن لقد كان خلوقا متخلقا مترفعا عن الذين احترفوا الإساءة إليه وتعمدوا إيذائه لا لشيء إلا لإرضاء غرورهم وإفراز المزيد من شرورهم وتحقيق أحلامهم على أنقاض تحطيم القلوب الطيبة. التحقت عائدة بمقاعد الدراسة بالجامعة وكان كل أملها من دراسة الحقوق هو الدفاع عن المظلومين وإنصاف من كان ضحية مكائد الحياة وخططها القذرة لقد كانت متفوقة وجدية في تعاملاتها مع صداقاتها الجديدة تعرفت على إحدى الطالبات والتي كانت ترافقها طوال الوقت الدراسي والمسماة بآية...

هي فتاة عادية جدا في شكلها لم تكن متكلفة ولا متكبرة تنحدر من عائلة فقيرة لا تجد سبيلا لقوت يومها في بعض

الأحيان لقد كانت تعيش مع أخويها الصغيرين وأمها ووالدها المريض الذي لم يكن لديه القدرة على عمل أي مهنة مهما كانت سهولتها وكذلك كانت تقطن معهم جدتها التي طالما دعت لها بالخير والنجاح، اتخذت عائدة من آية صديقة لها وأمينة أسرارها وكانت كلما دمعت عينها على أمها وجدت يد آية الحنونة تمسح وتجفف دمعها كما كانتا تبادلان الزيارة من وقت لآخر وتتسوقان لشراء أغراضهما الخاصة معاً، لقد كان ياسين يثق بهذه الفتاة فنظرته الأولى للأشخاص ثاقبة لا تخطأ في أغلب الأحيان، لذلك لم ير ضرراً من صداقتها لابنته في يوم ماطر عاصف كثيف الضباب تسللت فيه، بعض الأشعة الشمسية من النوافذ الرمادية للسحاب إذ بالباب يطرق... ذهبت عائدة كعادتها لتفتح فإذا بها تجد سارة واقفة أمامها... لم تصدق عائدة عينيها اختلط الخيال بالحقيقة في هذه الصورة المجسمة التي تقف أمامها فبرغم السنين وبرغم الحنين إلا أنها لا تستطيع أن تنسى هذا الوجه المرسوم على لوحة ذاكرتها البريئة انتابها شعور بالذهول والحيرة وخالجها إحساس بأنها في حلم جميل...

يجب عليه أن يستمر ولا ينتهي كما انتهى قبل سنوات ابتسمت

قائلة :

-كيف حالك يا سارة...؟

متى وأين وكيف قدمت؟

دمعت عين سارة من الفرحه وقالت:

-لقد عدنا للسكن هنا من جديد يا عائدة...

طلبت منها الدخول فدخلت وجلستا تتبادلان أطراف الحديث

طرق ياسين باب الغرفة مستأذنا اندهش لمجيء سارة لكنه

متيقن كل اليقين أن السعادة التي تملأ قلب عائدة أكبر من أن

تكون سعادة عادية قال: مرحبا بك يا صغيرتي في بيتنا

لا يزال وجه سارة مرسوما في مخيلته كما كانت وهي في الثالثة

عشر من عمرها ردت سارة: مرحبا يا عمي ياسين

نظر إلى عائدة وقال: أنا ذاهب إلى الصيدلية لأشتري لك الدواء

يا عائدة استمتعا بوقتكما.

قالت سارة: هل أنت مريضة يا عائدة؟

ردت عائدة:«لا فقط أعاني ببعض الألم برأسي من البارحة

أظني أخذت نزلة برد.

بالرغم من أن الحب الذي أكنته عائدة لصديقتها كان كبيرا إلا أن

التغير الذي كان يظهر على شكل سارة وملبسها وطريقة حديثها

كان أكبر كانت تحمل بيدها هاتفا نقالا من أحدث الموديلات وأفخمها على الإطلاق، كما كانت ترتدي في معصمها ساعة سويسرية لا يخفى على الناظر إليها أنها باهظة الثمن وكانت تلبس معطفا من الفرو الرقيق الذي يليق بالآتسات الراقيات، حتى أن عطرها الفرنسي كان يملأ أرجاء المنزل برائحته الزكية التي تأسر القلب والعقل في آن واحد غادرت سارة المنزل مقبلة صديقتها عائدة قائلة: غدا سنلتقي إن شاء الله في الجامعة.

سعدت عائدة كثيرا بهذا الخبر...

لم تكن تعلم أن قوانين لعبة الشطرنج من الممكن أن تتغير وتعيد الملكة إلى مكانها بعد فترة طويلة من خروجها، هكذا هي الحياة تأخذ منا أشياء وتمنحنا أشياء وترسم على وجوهنا ابتسامة مؤقتة تمحيها وتلغيها بقانون تفرضه الأيام والسنين وتعيد رسمها كيفما أرادت وفي أي وقت شاءت وبأي لون من الألوان اختارت ردت عائدة على سارة قائلة: سنلتقي في الثامنة صباحا عند المدخل الرئيسي للجامعة انتظريني هناك سأعرفك على المكان المخصص لمعهد الفنون الجميلة.

لقد كانت سارة منذ الصغر رسامة بارعة تحسن التنسيق بين الألوان كما تتقن رسم الأشخاص وتبدع في تشكيل ملامحهم

حتى يظن الناظر إلى اللوحة أنها ستتكلم لفرط ما يوجد فيها من حياة، حيث كان لها في منزلها أشبه بمرسم صغير خصصه لها والدها الثري.

استطاعت نجبية ببعض الأموال التي كان يعطيها إليها أخوها ياسين أن تشتري بعض الأشياء الخاصة بالعروس كتياب الحمام وأغطية وأفرشة مطرزة بالتطريز التقليدي الجزائري...

وضعتها في حقيبة صغيرة وأحضرتها إلى عائدة...

دخلت نجبية المنزل فإذا بها تجدها عائدة في حالة من السعادة الأمتاهية تدندن بعض الأغاني القديمة التي كانت تعشقها وهي صغيرة ابتسمت نجبية وقالت: اليوم أنت على غير عادتك يا عائدة أنا متأكدة أن هنالك أخبار جديدة في حياتك من حقك البوح بها كما من حقك أن تكتميها لنفسك ولكنني أنصحك بأن تبوحي بكل أسرارك لعمتك الحبيبة نجية، ضحكت عائدة ضحكة كانت حقا جديدة ومثيرة الفضول، كانت أشبه بصوت الماء العذب المتدفق في الغدير، وكان وجهها أشبه بشمس صغيرة مضيئة ولون عيونها كان جذابا و متموجا ولمعانها كان واضحا وضوح النجم في ليلة مقمرة.

قالت عائدة: لن تتوقعي أبدا من زارني اليوم يا عمتي.

إند هشت نجیبة وقالت: من یا عائدة؟

صديقتي سارة التزمت نجیبة الصمت للحظات قليلة ثم قالت: هل حقا ما تقولينه یا عائدة؟ هل هي باقية أم أنها ستغادر من جديد؟ أجابت عائدة: لقد قرر والدها العودة والاستقرار هنا بحكم عمله وستدرس معي بالجامعة كذلك، فرحت نجیبة وقالت: یا للمصادفة یا عائدة، في نفس اليوم الذي تعود فيه سارة أحضر لك أغراضك للرحيل بهتت عائدة لهذا الكلام ثم قالت: إلى أين سأرحل یا عمتي؟

ابتسمت نجیبة وأردفت تقول: أنا أمزح یا عائدة، أريد أن أقول أنني اشتريت لك بعض الأغراض، ستحتاجينها لزواجك، ارتبكت عائدة واتبها شعور بالخجل فقالت: لا زلت صغيرة یا عمتي ومشوار دراستي لا يزال طويلا سأكبر وسأصبح محامية وسأحارب كل من يكسر جسور العدالة والإنصاف ليعبد طريقا للظلم والمكر والطغيان، سكتت نجیبة ثم قالت:

ما دام والدك على قيد الحياة يدعو لك بالخير والنجاح فلا خوف عليك یا ابنة أخي سيكون الله في عونك وستجدين إن شاء الله دائما أشخاصا طيبين مثلك يحبونك ويقدرونك ويحترمونك فيك هذه البراءة النادرة.

عانقت عائدة عمتهما قائلة: نعم العممة أنت يا عمتي.
 لم يمض على مجيء سارة عدة أسابيع وعادت الصداقة
 القديمة كما كانت أم أقوى وبالرغم من عودتها إلا أن عائدة لم
 تتخلى عن صديقتها آية، هذه الفتاة الطيبة البسيطة أقامت
 عائلة سارة حفلة بسيطة في المنزل بمناسبة العودة، فكان من
 بين المدعوين آية وعائدة ارتدت عائدة فستانا زهري اللون
 وحذاء أبيضاً مرصعاً باللائي...

لقد كان على قدر كبير من الجمال والبساطة...
 كما لبست آية فستان أنيقاً يبدو أنه قديم بعض الشيء، فلم
 يكن بحوزتها المال لتشتري فستاناً جديداً لم يكن منزل سارة
 منزلاً عادياً...

لقد كان شديد الفخامة مؤثراً بأثاث عصري مختار بعناية فائقة...
 كما كانت الألوان كثيرة التناسق ومتناسبة فيما بينها فالأثرياء
 لطالما كان التنسيق والترتيب اختصاصهم...

كان هنالك بهو كبير به الكثير من الأرائك القماشية المطرزة
 وأخرى من الجلد الخالص وطاولات زجاجية بأرجل ذهبية اللون
 حتى أن اللوحات المعلقة على الجدران كأنما كانت مخصصة
 لمعرض رسام محترف إضافة إلى تلك الستائر المعلقة التي

كانت تلهم الناظر إليها أنها ستتكشف عن مسرحية كل أبطالها مسجونون وراء النوافذ الكبيرة.

لم تكن عائدة أبدا ممن يذهلهم الثراء وتخدعهم المظاهر... لقد كانت نعم الفتاة الحكيمة التي تؤمن كل الإيمان أن أثنى الأشياء وأغلاها لا تباع ولا تشتري...

هذا ما جعلها ترتدي الأخلاق الطيبة فستانا أبديا وتضع أجمل تاج يمكن للإنسان وضعه وهو الصحة...

وتحافظ على أكبر كنز يمكن للذي لا الغني الغبي وهو القناعة فالقناعة هي الكنز الذي لا يفنى ولا ينتهي وأبدا لا يزول، ارتحل الليل مخلفا وراءه بعض النجوم تستنشق أول نسيمات الصباح. فاستيقظت عائدة في يوم أشرقت فيه الشمس معلنة دق الحياة ونورها غسلت وجهها واتجهت إلى المطبخ لتشرب القهوة وتذهب إلى الجامعة...

فإذا بها تتبته لغياب والدها فليس من عادته الخروج باكرا، قررت عدم الذهاب للدراسة إلى حين حضور والدها لم يعد الوقت يتسع لشبح الانتظار الذي كان يلاحقها ولم تعد ضربات قلبها منتظمة لقد أصبحت تتسارع تارة وتباطأ تارة أخرى لتشارك هذه الأقدار حرية التلاعب بمشاعرها وأفكارها ارتسم

الحزن في عينيها لا مباليا بهذه اليتيمة التي فقدت أمها، وها هي الآن تستيقظ صباحا لتجد نفسها قابعة في عتمة المجهول كان الاستفهام والاستفسار كل ما يدور في ذهنها لذهبت بها الأفكار كل المذاهب فلم تعد تفرق بين الاحتمالات الخاطئة والاحتمالات الصائبة لهذا الغياب المفاجئ مرَّ على الزمن ساعتين اتصلت بعمتها نجية فلم يرن هاتفها...

تذكرت أنها قالت لها آخر مرة أن هاتفهم معطل ارتدت ملبسها وانتعلت حذاءها وقررت أن تذهب للبحث عنه لعل حبها له سيقودها إليه ويوحي إليها بمكانه فتحت الباب نحو المجهول تاركة وراءها الشقاء والعذاب الذي سببه الانتظار. ولم تكد تخطو خطوات خارج المنزل حتى سمعت خطوات والدها صاعدا على الدرج...

هي أبدا لا تخطئ سماع خطواته المتثاقلة التي تشهد له بفكره الرزين وجسارة حكمته البالغة.

تراجعت قليلا وأدارت رأسها بانحناء لتنظر من القادم فكان إحساسها حقيقة مجسدة بناظرها، لقد عاد إلى المنزل وبيديه حزمة كبيرة يبدو عن شكلها الخارجي أنها كيس دواء استجمعت أفكارها ورقصت الفرحة في أعينها وحاولت أن تسأل

والدها سؤالاً واحداً من بين ألف سؤال كان يجول بخاطرها لكنها لم تستطع قول شيء سوى: صباح الخير أيها العزيز. بالرغم من أن والدها كان عاملاً بسيطاً في مصنع الأدوات المدرسية إلا أنه كان عالماً متخصصاً في علم الإحساس والشعور لقد كانت هذه الجملة التي قالتها تدل على الكثير لم تكن بحاجة إلى طرح قائمة من الأسئلة كي تعرف ما سبب غيابه بمخيلتها لكن كلمة «العزيز» بالرغم من صغرها إلا أنها دلت على حب عائدة الكبير لوالدها وقيمته ووقاره والاحترام الكبير الذي تكنه له، ابتسم ابتسامة خالطها الحزن والألم دخل المنزل ثم جلس على كرسي وضع كيس الدواء على الطاولة تبعته عائدة ناظرة إليه بشيء من الحيرة وقالت: لا بد أنك مريض يا أبي؟

أطرق رأسه هنيهة ثم استعاد أنفاسه وقال: لقد شعرت صباحاً بألم شديد في البطن لقد كنت نائمة فلم أود إيقاظك ارتديت ملابسِي واتجهت إلى المستشفى.

قالت: ماذا قال لك الطبيب؟

قال أني أشكو من تفرح على مستوى المعدة وسيزول إنشاء الله بفضل الدواء.

لم يعتد ياسين الكذب لقد كان رجلاً نظيفاً وصادقاً لكنه

انحنى في وقت كان من الأجدر أن يثبت فيه ويقول الحقيقة...
 هاته الحقيقة المرة التي يخفيها عن ابنته الوحيدة ابتسمت عائدة
 وقالت له: سأذهب إلى الجامعة وسأعود باكرا كي اعطني بك يا والدي.
 حين يتغلغل المرض في أجسادنا وتسقط أول ورقة من خريف
 عمرنا...

نقاوم أحيانا ونستسلم أحيانا فيسقط القناع الأكثر ألما وظلمة
 وسطوة على الروح والجسد ومن الأجدر بنا أن نقوى في معار
 كنا ضد المرض...

هذا الجيش الذي كلما هزمناه انتصر وكلما حاصرنا انتشر...
 هو دائما يضعنا في امتحان صعب وقوة الثبات فيه تتحدد
 بحجم المرض وكفاءة أسلحتنا الجسدية والنفسية التي نصبوها
 ضده إنه عدو مباغت...

هو فقط من يعلن البداية ويشهر بالنهاية وليس علينا نحن
 سوى متابعة الميسر في طريق ليس معبدة متعبة و ملزمة على
 ملازمة السريير لبضعة أسابيع أو أيام أو حتى أعوام، ذلك
 ما تقرره هاته الأقدار التي تتربص بصحة أجسامنا وقوتها، في
 يوم الغد طلبت سارة من عائدة وآية مرافقتها للتسوق لقضاء
 بعض الحاجيات فوافقتا بالرغم من التعب النفسي الذي كانت

تعانيه عائدة بسبب مرض والدها ياسين إلا أنه أصر عليها
لمرافقة صديقاتها إلى التسوق.

لقد كانت سارة جميلة حتى التوهان وثرية حتى الجنون ومثقفة
وفنانة وملهمة حتى الإبداع ليس هذا فقط، بل كانت أكرم
من أن يقال أنها فتاة طيبة وكريمة وكان البخل أبعد ما يمكن
أن توصف به أول الأشياء التي اشترتها هي علبتين من العطر
الفاخر الأولى لآية والثانية لعائدة كما رافقتهما إلى المكتبة
لاقتناء بعض الكتب في القانون، ولم ترضى إلا أن تكون هي من
يدفع ثمنها استمتعت الفتيات الثلاث بتسوقهن مع بعض...
عادت عائدة إلى المنزل وكان الحزن الذي ينتظرها أكبر بكثير
من الفرحة البسيطة التي اجتاحتها أثناء تسوقها مع سارة وآية،
لقد كان والدها طريح الفراش يعاني من سعال حاد وحرارته
مرتفعة جدا كما كان جبينه يتصبب عرقا وشفته شديدا البياض
أحضرت إليه بكوب ماء مسرعة...

ساعدته في ارتداء ملابسه وانتعال حذاءه وذهبت به إلى
المستشفى الذي لم يكن يبعد عن المنزل إلا ببضع خطوات
قصيرة فور دخوله قام الطبيب بفحصه وإجراء بعض التحاليل
اللازمة لتشخيص حالته كما وضع له محلولاً مغذي لم يمر

على دخوله سوى ساعة إلى المستشفى إلاّ وبدأت ملامح الحياة تبدو على وجنتيه انتعش واستفاق من هذا الموت المؤقت... من هذا السهم الذي قتله ولم يدميه ظن أنه سيميته لكن الأقدار أرادت أن تحييه...

اهتزت جوارح عائدة وكل نبضات قلبها استقالت وانقلبت إلى هزات ارتدادية زلزال ضرب عاصمة العاطفة العظيمة التي كانت تكنها لوالدها، التحم الخوف بالقهر بين حنايا أحاسيسها المرهفة ولم يعد للفرح مكان صغير وسط هذا الازدحام المبالغ لأحزانها وهذا الاكتظاظ المفاجئ لدموعها شعرت بعمق البأس في بحر تيتها وتذكرت أنها كلما سبحت إلى الأسفل واجهتها أسماك الموت وطحالب الألم لقد كان المنظر جميلا من قبل ولم تكن تعلم عن بحر الحياة شيئا...

كل ما كانت تظن به هو أن شكله كان مسطحا ولونه أزرقًا وشاطئه جميلا ومرصعا بالأصداف لم يخطر على بالها أنه سيضطرب ويصبح شكله متموجا ولونه أسودا وشاطئه عليلا مرصعا بالأدوية والحقن، نظر ياسين إليها نظرت مكتئبة لا تخلو من الحنان فالطييون هم دائما هكذا بطبيعتهم يتجملون بالرغم من أنهم يتعبون ويمرضون قال بصوت خافت ارتعشت

له شفاته: أنا بخير يا عائدة لا تقلقي اطمئني وامسحي هذا الدمع الغالي الذي ينسكب من عينيك.

ابتسمت ابتسامة صغيرة ينقصها الكثير من الصدق لقد كانت مزيفة فحزنها كان أقوى من أن تستطيع إبداء هذه الابتسامة العابرة سعدت لرؤيته يتكلم معها وأحست بتحسن صحته فقالت: الحمد لله يا أبي لقد أربني وضعك ظننتك ستموت وتتركني يتيمة لأبوين.

رد قائلاً: لطالما قلت لك يا عائدة أن اليتيم ليس اليتيم الأب والأم ولكن اليتيم اليتيم العلم والأخلاق، لقد كانت تتوقع إجابته فهاته الوسادة التي يسند إليها رأسه تحتضنه رأسه لكنها لا تلغي ما يدور فيه من الأفكار الراقية وعبر الحياة اللامتناهية دخل الطبيب ومعه ورقة بها التحاليل والفحوصات كان سيقول شيئاً لو لم يقاطعه ياسين متعمداً: من فضلك أيها الطبيب ابنتي مرهفة الأعصاب ومتعبة من حالي المرضية أنا لا أريد أن أزيد عليها هما ونكدًا بالنتائج التي تحملها في يدك، لقد فهم الطبيب كل شيء...

عرف أن ياسين لا يريد إخبار ابنته بحقيقة مرضه عادت عائدة ووالدها إلى المنزل أدخلته إلى غرفته لينام كانت الساعة التاسعة

ليلا ودخلت بدورها إلى المطبخ لتسخن بعض المأكولات التي أحضرتها أثناء تسوقها ما إن أتمت تجهيز المائدة حتى وجدته واقفا أمام عينيها اندهشت لمظهره كان أشبه ببقعة ضوء شاسعة وسط رقعة ظلام واسعة نظر إليها وقال: ما كل هذه المأكولات يا عائدة؟

لقد اشتريتها من السوق تبضعنا أنا وسارة وآية أليس من الأفضل لك يا أبي أن تستريح في غرفتك؟

الحمد لله أشعر بتحسن كبير هل استمتعت بوقتك يا ابنتي؟ ردت عليه والبهجة واضحة على وجهها: نعم يا أبي تفضل اجلس لتناول العشاء وسأحضر لك علبة الدواء فوراً، جلس ياسين أطرق رأسه هنيهة كان يبدو عليه الشرود في فكرة ما ودون أن يطيل التفكير نظر إلى عائدة وسألها: أريد أن أطلب منك طلباً يا ابنتي وكلي رجاء أن لا تردي طلبي هذا. حير السؤال عائدة...جلست أمامه ينتابها القلق والخوف أحست أنه يخفي عنها شيئاً ما، كل طلباتك مستجابة يا والدي أنت تاجي وأؤمن ما أملك في حياتي.

ارتاحت نفس ياسين لهذه الكلمات فقال: أتمنى لو أنك يا عائدة عندما تتزوجين أن تزوريني مرة واحدة في الأسبوع اغرورقت

عينا عائدة وانتهى كل الكلام ساد الصمت في نهاية هذا الفلم المزعج الذي عاشته ارتبكت مشاعرها ولم تعد تستوعب شيئا مما يقول، لم يكن يدور برأسها سوى أشياء متداخلة متضاربة لا علاقة لها بالعقل والمنطق استجمعت بعضا من أشلاء الحروف الساقطة على أرض كلماتها وأخرى كانت معلقة على جدار شفيتها الصغيرتين.

حاولت أن تكون قوية لكنها كانت أضعف بكثير من أن تكون ضعيفة لم تعد تعرف بأيهما ترد بالكلام أم بالبكاء... مسحت دمعته وقالت: أنا بدوري أتمنى منك شيئا يا أبي هو أن لا تعود لإغضابي بمثل هذه الطلبات.

ابتسم ياسين ابتسامة تفوق عائدة حجما وجمالا لقد تأكد من عظمة الحب والحنان الذي تكنه له ابنته أكمل طعامه ودخل غرفته أما عائدة فسارعت بعد تنظيف الأواني إلى دخول غرفتها كي تتمتع بالملابس والإكسسوارات والعطر الثمين الذي اشتريته سارة لها نهضت صباحا فإذا بها تجد عمته نجية مع والدها في غرفته تتحسس حرارته وتأن بمعاناته فرحت لرؤيتها، فهي لم تعد ترتاد المنزل كسابق عهدها سلمت عليها وعانقتها بشدة تأثرت نجية لمرض أخيها الوحيد ياسين لطالما كان لها

أخا وأبا وسندا في حياتها القاسية كما كانت له عوناً وأختاً طيبة بعد موت زوجته لقد كان بعيونها الكثير من الكلام. وعلى وجهها امتزج البأس بالآلام أرادت أن تشارك أخيها في بعض المشاكل التي كانت تواجهها لكن ظروفه الصحية المتدهورة حالت دون ذلك لم يهنأ بال نجبية على أخيها فقررت أن تظل الليلة معه، ففرحت عائدة لبقاء عمته ورحبت بها كثيراً... ذهبت إلى الجامعة وعادت مسرعة إلى المنزل دخلت فوجدت عمته في غرفة المكتبة الصغيرة الخاصة بوالدها كانت تطل على الحديقة المجاورة كانت تبدو جميلة جداً رغم كبر سنها وتغير ملامح وجهها وقسوة الدهر عليها قالت عائدة: ما الذي تنظرين إليه يا عمتي هل هناك شيء جديد ألم بالحديقة غير أشجار البرتقال!

ابتسمت نجبية ابتسامة هي أقرب للغروب من الشروق، كان يبدو عليها آثار بكاء فعيونها كانت شديدة الانفتاح والاحمرار ووجهها كان أشبه بيوم خريفي متنكر في ثوب ريعي جميل قالت: « لقد رجعت بسرعة يا عائدة...؟! »

نعم يا عمتي أريد أن أستمتع معك اليوم حتى آخر الليل ضحكت نجبية وقالت: هل تحبيني يا عائدة؟

أحبك كثيرا يا عمتي لكنني غاضبة منك بعض الشيء قالت
نجيبة لماذا يا صغيرتي؟

لأنك تبكين وحدك، لا تريدين أن أشاركك الدمع كما أنك لا
تبوحين لي بما يؤلمك ويعكر صفو حياتك؟

أجابت نجيبة بصوت منخفض عما كان يصدر منها سابقا هكذا هي
الحياة يا عائدة نصفها آمال وكلها آلام والكثير ممن يعيش فيها
هوايته الشر والانتقام لماذا كل هذا التشاؤم والاكئاب يا عمتي
أفصحي عما يعتريك لطالما كنت تقولين أنني كما لو كنت ابنتك.
اغرورقت عينا نجيبة وقررت أن تقص على عائدة كل حكايات
الحزن والشر التي قرأتها في مدرسة الحياة قالت: من الصعب
جدا على امرأة أن تعيش مع رجل هي متأكدة كل التأكد أنه
لا يكن لها أية ذرة حب أو ود أو إحساس بالاحترام والحنان
والأصعب من هذا هو أن يعترف بلسانه أنه لا يحبها ولا أمل له
أن يحبها، كبل الحزن هذا القلب الفتى الذي تحمله عائدة بين
أضلعها وتحولت كل ملامح الحب المرسوم على صفحات ذاكرتها
إلى لوحة بشعة معلقة على جدران مخيلتها ليس من السهل
علينا أن نرى أعز الأشخاص إلينا يتعذبون ويتألمون يعانون
ولهم من القوة والصبر ما يجعلهم على كل هذا يتسترون.

لم يكن زوج نجبية رجلا عاديا لقد كان يتعطر بالقذارة ويتجمل بالرزيلة ذميم الوجه وقبيح المنظر وسيء الخلق والأخلاق كما لم تكن نواياه طيبة كان أبسط ما يمكن أن يقال عنه أنه كان شريرا اجتمعت كل صفات البشاعة فيه لم يكن مؤدبا أو متحضرا، يتهيا لأي إنسان يحدثه أنه على وشك أن يخلق معه شجارا، كان أسلوبه عنيفا يمتزج بالوقاحة ويتميز بقلّة الاحترام أجمل ما كان يميزه هو دقّ وطيبة زوجته فلولاها ما كان هناك شعاع نور صغير في هذا الزواج الغير متكافئ لطالما كانت نجية صبورة معه رغم تمردده وغبورة رغم ظلمه وغبورسته وحنونة رغم جفاءه وجبروته استمرت على هذا الحال لعدة سنوات حتى فاربت الخمسين من عمرها، ولا زالت تكابد آلام الحياة وقسوتها من أجل أن ينعم أولادها بعائلة متحدة ولا تحرمهم حزن والدهم بالرغم من أن ذلك الحزن كان موحشا يفتقر إلى الكثير من الدفء والمحبة اعتادت نجية سبيل التضحية. لم يكن بجعبتها وهي تتجول وسط ميادين الحرب سوى رايات بيضاء فالأقدار لم تمنحها حق التسليح ضد هوة الدمار العاطفي والذي كان زوجها ينتمي إليهم لقد كانت عائدة عطوفة رحيمة القلب حسنة الطبع هذا ما جعلها تنصت

لعمتها بكل جوارها وتدرك عمق البأس الذي تغوص فيه... حاولت أن تخفف عنها ببعض الأقوال التي ورثتها عن والدها الطيب ياسين ابتسمت فقالت: أنظري يا عمتي إلى النصف الممتلئ إلى الكأس وحاوولي أن تري وسط الظلام الحالك ذلك الضوء الجميل المنبعث من القمر...

قاومي كشجرة صامدة ترفض الانكسار ولا تعترف بالإعصار... اندهشت نجبية وانتابها إحساس أن من تتكلم معها هي فتاة أخرى غير عائدة لم يعد بعقلها شيء يوحي بأن هذه الفتاة الواقفة أمامها هي ابنة أخيها ياسين ها هي عائدة تكبر وتكبر فيها الإدارة والعزيمة وتتعلم ما معنى الصمود وتتصح من كان يحملها من المهد صغيرة وتطيب خاطرها بكلمة حلوة وعذبة وعبرة، هي أجمل بكثير من أن تسمعها الأذان وتستوعبها العقول اقترب موعد الامتحانات فبدأت الفتيات الثلاثة عائدة وسارة وآية المراجعة التحضيرية وفي يوم ممطر كثيف الضباب إذ بسارة تنسى دفتر مراجعتها بجعبة آية ولما انتهت هذه الأخيرة كانت سارة قد غادرت بسيارتها لم تعي ما تفعل هي تعلم أن لسارة امتحان يوم الغد، قررت الذهاب إلى منزلها فهي تعلم أين يقع لأنها ارتادته يوم الحفلة التي أقامها أهلها بمناسبة العودة.

حملت آية نفسها وذهبت إلى منزل سارة قرعت الباب فإذا به يفتحه الأخ الأكبر لها واسمه نادر ارتبكت آية كثيرا أحست بشيء يدور بأفكارها ويفتك بشعورها...

لم تكن تعلم ما هو لكنها نطقت في خجل شديد: أنا صديقة سارة. قال: تفضلي دخلت فإذا بسارة قادمة نحوها مندهشة لمجيئها استرسلت آية قائلة لسارة أنها أحضرت لها دفتر مراجعتها شكرتها على هذا الجميل ودعتها لشرب القهوة معها فقبلت الدعوة جلسنا يتبادلان أطراف الحديث في شرفة غرفتها المطلة على حديقة تأسر الروح بجمالها.

لم ترض سارة لآية العودة بمفردها إلى البيت فقد كان الجو ممطرا والسماء مغطاة ولم يكن بحوزتها مظلة وهما في صدد الخروج من هذا المتحف الأثري الذي تسكنه سارة انتاب آية إحساس جعلها تستدير وتنظر خلفها...

كان هنالك شيء خفي وقوي يطالبها بالاستدارة إلى الوراء كان هنالك رجل يقف خلف ستار الصالون ولولا حركته لما اكتشفت وجوده أنه نادر الذي يبدو أنه أعجب ببراءة آية وجمالها الخلاب لول وهلة عادت سارة إلى المنزل فوجدته في انتظارها ينظر إليها بازدرأ قائلاً: لم أكن أعلم يا أختي أنك

تصاحبين أصدقاء بهذا البؤس! ابتسمت سارة ودخلت غرفتها لإتمام مراجعتها دون أن ترد عليه بينت شفة... كانت تدرك حجم الغرور الذي يسكنه والذي لا يتلاءم مع براءة وبساطة صديقتها آية في يوم الغد بعد انتهاء الامتحان خرجت آية وجلست في حديقة الجامعة تنتظر سارة وعائدة ها هي تلمح عائدة قادمة من بعيد وملامح السرور بادية على وجهها لابد أنها أجابت بطريقة صحيحة وأن الامتحان كان سهلا. جلسنا لتبادلان أطراف الحديث وحدثتها أنها ذهبت لمنزل سارة وأخبرتها أن لها أخ كبير اسمه نادر قالت عائدة: أنا لا أعرفه...سارة أبدا لا تتحدث عنه ردت آية:

إنه شاب بسيط ومتواضع ولا تبدو عليه أي آثار الكبرياء والغرور لم تكن آية تتقن علم الحياة ولا فلسفة الشعور لا نرى من السماء سوى زرقتها ولا من الأزهار سوى عطرها.

خانها الإدراك وتناست تماما شكل السماء حين يقصف الرعد وتتجمع السحب لم يخطر ببالها خطر الموت بعشبة صغيرة سامة يظن قاطفها أنه سيستمتع بمنظرها وعطرها.

لم تعدو بضع دقائق وقدمت سارة سلمت على صديقتها وجلست قائلة: أنا آسفة يا آية لا بد أن أخي نادر قال لك

شيئا أزعجك البارحة؟

ردت آية : إطلاقا يا سارة كان لطيفا ومهذبا. ابتسمت عائدة وقالت: لم أكن أعلم يا سارة أن لك أخا اسمه نادر أنت لا تتحدثين عنه أبدا.

انتاب سارة بعض الحزن وقررت أن تبوح بهذا السر لأعز صديقاتها نادر هو أخي من أمي...

تعجبت الفتاتان وقالت عائدة: هل كانت أمك متزوجة قبل زواجها بوالدك يا سارة؟

نعم لقد تزوجت برجل لم تتوفق في حياتها معه بسبب المشاكل اليومية فطلقها، حينها كان عمر نادر ٣ سنوات. ثم تزوجت بأبي فأنجبني أنا.

لم تكن عائدة تعلم أن الحياة معقدة بهذا الشكل وأن الحقائق قد تكون غريبة بهذا الحجم استمرت سارة قائلة: أخي نادر لا يستلطني وقلما يتحدث إلي يحس أن الحياة ظلمته حين فرقته عن والده وأنصفتني قالت عائدة:

ولكن أين هو والده؟

ردت سارة: لقد سافر وتركه.

اغرورقت عينا آية أشفقت على هذا الشاب الثري الذي يتمنى

لو عاش وسط عائلة متحدة كالجميع.

لطالما كانت اعتقادات آية خاطئة...

كانت تظن أن المال أساس الحياة...

لم تكن تعلم أن الأثرياء أناس ولهم إحساس يتألمون ويتعذبون أحيانا تعطيهم الحياة الكثير لتأخذ منهم ما هو أكثر قيمة كان الفقر يعمي عيونها والحاجة تكبل تقديرها للأشياء...

تمنت لو كانت براءة سارة...

لم تكن تعلم أن سارة كثيرا ما كانت تنام دون أن ترى والدها وهذا بسبب عمله الدائم وسفره المتواصل الذي يدوم لعدة أيام أحيانا تاركا وراءه الخدم يتولون شؤون المنزل، في حين لم تكن تقدر نعمة تواجد والدها هي معها طوال الوقت لقد كان والد آية مصابا بإعاقة دائمة في يده اليمنى ما جعله لا يجد عملا يلاءم وضعه الصحي حيث كان عمها الأكبر يساعدهم ماديا... كما كانت أم آية تعمل خادمة في منزل جارتهم العجوز والتي كانت تمنحها أجرا شهريا يكفيها لاقتناء بعض الأشياء لمنزلها ولأولادها... كانت آية أكبر أخواتها...

لم تكن بالفتاة الجميلة المحتملة وإنما كانت فتاة بسيطة

ومتواضعة شاحبة الوجه كثيبة المظهر كأنما رسم الدهر عليها كل مآسيه وأحزانه ولم يكن بمشييتها شيء يشي بالجرأة والشجاعة والصمود كان الخوف يعنون شخصيتها المترددة وعواطفها المتذبذبة سارت عائدة في طريق الحياة مكتنزة حب والدها بقلبها وحنان عمتها بصدرها كما كانت تحب صديقتها آية وسارة صديقته طفولتها التي وجدتتها بعد أن ضاعت منها في يوم شديد السواد لَوَّئَهُ القدر بدأت عطلة الصيف كالعادة فقررت عائلة سارة الذهاب لإمضائها على شاطئ البحر في منزل هو أجمل من أن يكون جميلا وفاتانا.

وبالرغم من إلحاحها على عائدة وآية لمرافقتها إلا أن الفتاتين رفضتا كان عذر عائدة مرض والدها فهي لا تستطيع تركه لوحده رغم أن عمتها نجيبة كانت تعودته لتطمئن عليه أما عن آية فهي فتاة يغلب عليها الطابع الخجول الذي يستحي من النظر إلى نفسه في المرأة ولم يكن بخزانتها ملابس جميلة وأنيقة تليق بالفخامة والترف الذي تعيشه سارة وعائلتها بين الصباح والمساء وبين طيات الأيام العابرة زقرقت العصافير واكتسب الصيف لونه الذهبي وصفائه الشفاف وأزهرت الأشجار فترتبت المياه في الأنهار بعد تدفقها المضطرب تحت زخات

المطر فانقشع الضباب عن شمس الحياة في عيون عائدة... نظرت إلى نفسها فوجدت ما يرضي النفس ويغري الروح من الأنوثة الصارخة قررت أن تخرج في نزهة مع عمته لشراء بعض الحاجيات والملابس الصيفية.

هافتها ليلاي تقترح عليها الذهاب للتسوق معها ففرحت نجيبة بهذه الفكرة التي كانت تنتظرها لتغير الروتين وتكسر حواجز الفرحة بداخلها استيقظت نجيبة صباحا مرتدية ملابسها وانتعلت حذاءها وهمت بالخروج فإذا بها تسمع صوت زوجها يناديها عادت إليه مسرعة فقال لها:

إلى أين أنت هاربة؟

ردت عليه بصمت كئيب: أنا كعادتي سأذهب إلى أخي الوحيد... لست هاربة من شيء أنا فقط ذاهبة.

أين قهوتي؟ وهل حضرت الفطور؟ القهوة فوق الطاولة بالمطبخ والفطور جاهز سأعود قبل وقت الإفطار، لن أتأخر بما أن الفطور جاهز فهذا يعني أنك كنت تتحضرين للخروج اليوم دون إخباري! لكنك تعودت على هذا الوضع فمند زمن طويل ارتاد منزل ياسين لأرى ماذا ينقصه...

ما الذي جعلك اليوم قلقا ومضطربا وتود إفساد فرحتي هذا

يعني أنك سعيدة جدا ولا تريدين أن أفسد فرحتك هاتفتني عائدة البارحة تريد شراء بعض الأشياء فطلبت مني مرافقتها لقد توضح الأمر...

أصبحت عائدة أهم مني سكتت نجيبة هنيهة أطبق الحزن على شفيتها فهذا ليس جديدا عليها هو هذا الجدل العقيم الممل الذي يكتسح حياتها ويقتل كل مشاعرها لم يكن هذا الرجل زوجا عاديا كان كل صباح يختلق المشاكل ليقطع ما تبقى من أزهار أنوثتها ويطعمها بدل العسل سماؤا وعلقما وخرجت فتعثرت في الطريق مرتين و كادت تسقط لم تكن خطواتها منتظمة لقد كانت متبعثرة بين أشلاء جراحها وبالرغم من ذلك كانت دائما تذهب إلى بيت أخيها ياسين مبتسمة وضاحكة، لربما كانت ترى في الابتعاد عنه لبضعة ساعات منفذا كبيرا وهروبا مؤقتا دخلت المطبخ وأفرغت له فنجان القهوة وذهبت به إليه قال: أعرف كيف أشرب قهوتي لوحدي، تعتمد إسقاط الفنجان كي يتعبها لا أكثر... أحضرت نجيبة منشفة لتنظيف الأرضية حملت قطع الزجاج المترامية في كل مكان حتى أنها جرحت أصبعها فسال منه الدم اضطرت لوضع ضمادة حملت نفسها وخرجت فتعثرت في الطريق مرتين وكادت تسقط كما لو أنها طفل صغير يحاول

المشي لأول مرة في حياته ولم تكن مشيتها تدل على أنها ذاهبة كانت تبدو في ارتياب بين الذهب والإياب حتى أن ملابسها لم تكن مرتبة ورائحة القهوة تفوح من يديها كما تفوح رائحة القهر من عينيها، طرقت الباب ففتحت عائدة لم تدخل كانت تنظر نظرة تمتزج فيها الغرابة بالألم قالت: عائدة صباح الخير عمتي أدخلني ماذا دهاك؟

دخلت نجية المطبخ تائهة كأنها سمكة صغيرة وسط المحيط مظهرها يوحي للرأي أنها امرأة أخرى مستنسخة منها تأثرت عائدة بمنظرها هي تدرك الآن هذا التعب النفسي الذي تعاني منه عمته... ابتسمت في وجهها قائلة: ابتسمي يا عمتي كي تحبطي مؤامرة الحياة ضدك؟

فأجابت نجية: هي ليست مؤامرة من الحياة يا عائدة إن كل الحياة التي أحيها مؤامرة، أو لست أنا وأبي شعلة نور في حياتك يا عمتي ألم نمنحك الحب والحنان لست سعيدة بأولادك الذين سيعوضون عنك أيام القهر والحرمان. ابتسمت نجية وقالت:

لقد أحظر لي ماجد ليلة البارحة هذا الخاتم الذي أحمله بأصبعي، نظرت عائدة إلى الخاتم فبهتت بجماله وقالت:

إنّ ولدك الكبير ماجد بالرغم من أنه صغير السن لكنه يشتغل بجد كي لا ينقصك شيء ويشعرك بالحب أليس هذا كافيا كي تنغاضى عن ألم كبير بحب أكبر منه بكثير، سمع ياسين حديثهما فنهض من فراشه متثاقلا: سلم على أخته قائلاً: حق المظلوم لا يضيع أبدا يا نجيبة ابنتي كوني مصارعة قوية لا تستلمي للكلمات التي توجهها الحياة ضدك واصنعي منها تطعيما لفيروسات الحزن واليأس والدموع. انتعش قلب نجيبة بهاته الكلمات الشافية تأكدت أن الله عادل لا يحرمنا إلاّ ليحمينا ولا يبكيها إلاّ ليشفيها فلولا الدموع لما اغتسلت النفوس وشفيت الجراح لولاها لما هدأت عاصفة الغضب والقهر وسكنت فينا نوبات الإحساس بالظلم والإهانة نظرت إلى عائدة قائلة: هيا لنذهب أنا أحس أنني أحسن حالا من ذي قبل، تمتعت نجيبة وعائدة بيومهما دون أن تنسى عائدة اقتناء بعض الكتب المتنوعة المواضيع هي ليست بالطالبة المجتهدة فقط إنما كانت طالبة علم بدرجة امتياز لقد كانت تطالع الكتب بما فيها التاريخ الاقتصاد، السياسة، الطبخ، الجغرافيا، الموسيقى اللغات، والآداب، كتب الشعر القديم والحديث، لم تقتصر دراستها على الحقوق فقط كانت دائما تحلم أن تكون امرأة

مثقفة يفتخر بها والدها ويتباهى بها أمام عائلته وأصدقائه وجيرانه عادت عائدة إلى المنزل فوجدت والدها يحضر القهوة حاملا بيده جريدة...

استغربت أنه يحمل جريدة هو في عاداته لا يحب مطالعة الجرائد، لقد كان ياسين يتصفح الجريدة لعله يجد إعلانا عن طبيب أعشاب لربما يفيدته في مرضه الخطير الذي يخفيه عنها قال: هل استمتعت يا عائدة مع عمك؟ نعم يا أبي اشترت بعض الحاجيات لي والكثير من الكتب كما اشترت لك شيئا أتمنى أن يعجبك. ماذا اشترت لي ابنتي الجميلة؟

إنها زجاجة عطر ليست باهظة الثمن لكن عطرها جميل وجذاب. حمل ياسين زجاجة العطر ووضع بعض القطرات على قميصه قال:

أنت فتاة ذواقة يا عائدة إنه عطر جميل بالفعل ولكن الأجل منه هو أنك أنت من أهديتني إياه.

هل أنا عزيزة عليك يا والدي؟

سكت هنيهة ثم ابتسم قائلاً:

عندما تتزوجين يا عائدة يصبح لك أولاد ستدركين حينها كم حبك يا ابنتي احمر وجه عائدة إنها أول مرة يتكلم معها والدها

عن الزواج الأصالة فينا هي الأصالة لا شيء يشبهها ولا شيء يحل محلها لو اضمحلت فينا وانتهت لقد كانت عائدة أصيلة أصلة شجرة الزيتون بفلسطين وأصالة شجرة الأرز في لبنان... حريتها التي يمنحها لها والدها ثقافتها وتعليمها وحتى فترة المراهقة التي تعيشها لا تستطيع أن تغير فيها شيئا محفورا ومرسّخًا في شخصيتها إنها أصالتها.

تالت الأيام وتابعت ولم تكن صحة ياسين في تحسن فمرضه كان شديدا ومرهقا ولم يأخذ بنصيحة الطبيب الذي أخبره بضرورة متابعة العلاج في المستشفى ارتابت عائدة لحالة والدها المتدهورة فقررت أن تبحث عن الوصفات الطبية عليها تتعرف على أسماء الأدوية التي وصفها له الطبيب معتقدة أم أنها كانت شبه متأكدة أنه لم يشتري كل الدواء بل البعض منه وهذا ما أدى إلى سوء حالته الصحية بحثت في كامل أرجاء المنزل فلم تجد أيًا منها استغربت الأمر فسألته حين عاد من العمل تريثت بعض الشيء تاركة له مساحة من الزمن كي يسترجع أنفاسه وقالت: هل أنت بخير يا والدي؟ نعم أنا بخير يا ابنتي ولكن يبدو عليك التعب والشحوب لا تهتمي يا عائدة...

والدك لم يعد شابا صغيرا لقد بحثت في كل مكان عن وصفة

دواء من الوصفات الطبية التي كتبها لك الطبيب لكنني لم أجد ولا واحدة لماذا يا عائدة؟

أريد فقط أن استشير الطبيب لربما سيغير لك الدواء بآخر أكثر فعالية ارتسم الألم على وجه ياسين...

تأكد أن عائدة تفكر بشيء ما...

هي أذكى من أن يكذب عليها الآخرون حتى ولو كان هذا الشخص هو والدها قال لها: سأذهب غدا إلى الطبيب وسأعيد التحاليل فلربما سيصف لي أدوية أخرى.

ردت عائدة بسرعة عجيبة: سأذهب معك يا والدي.

«لكنك تدرسين غدا يا عائدة؟»

ارتبكت عائدة ...

شعرت أنه لا يريد أن ترافقه إلى المشفى فأجابت محاولة أن لا يبدو عليها أثر الكذب أنا لا أدرس غدا يا أبي أستاذنا أصيب بنزلة برد شديدة فأعلمتنا الإدارة أنه سيغيب.

الحب أحيانا يجعلنا نكذب وننمق مجموعة من الكلمات لكي تنجح في كذبة معينة...

نحارب لحظة صدق من أجل كذبة بيضاء لم تتعود عائدة أن تكذب هي فتاة مؤدبة وخلقوة ومؤمنة والمؤمن لا يكذب أبدا

لكنها لم تجد حلا آخر لتعرف ما نوع المرض الذي يعاني منه والدها ابتسم ياسين ابتسامة خوف هو لا يريد أن تعرف ابنته بحقيقة مرضه كي لا تكتشف أن الموت سيأخذه منها...

لا يريد أن يستبدل شمس حياتها بظلام موته...

لا يريد أن يكون سببا في تعاستها بعد أن كان الطريق الوحيد المؤدي إلى سعادتها هو يعلم حجم اليتيم الذي يسكنها ويتغلغل في وجدانها لا يحتمل أن يرى دمعة تنسكب من بحر عينيها البريئتين أطرق رأسه هنيهة ثم قال: حسنا سنذهب غدا. انقشع الضباب عن إحساس عائدة شعرت أن كل شكوكها كانت وهما وسرابا...

لم تكن تعلم أن للإنسان الذي دائما خطة بديلة في صباح الغد ذهب ياسين وابنته إلى المستشفى...

أجرو له التحاليل وأحالوه إلى غرفة الطبيب دخل مع عائدة فرحب بهما الطبيب قائلا: من الواضح أنك أحسن حالا ياسين» استغربت عائدة هذا الكلام هي تلاحظ شحوب وجهه وهزلة جسده صمتت هنيهة ثم قالت: إنه شاحب الوجه منهك القوى. فرد عليها الطبيب:

لكن كل التحاليل تؤكد أنه أحسن حالا.

لم تكن عائدة تعرف أن والدها يحتفظ برقم الطبيب بهاتفه النقال هذا ما جعله يهاتفه قبل الزيارة ليحثه علىطمأنة عائدة وإقناعها أنه بخير ابتسمت عائدة ابتسامة عريضة وضحك قلبها من جديد خرجت من المستشفى مبتهجة وعلامات السرور بادية على ملامح وجهها نظرت نظرة متأملة لون السماء وقالت لوالدها: كأن الشمس أجمل بكثير مما قبل و كأن السماء اكتسبت لونا أزرقا جذابا يثير غيرة الناظرين...أنه أجمل يوم في حياتي. شعر ياسين بمدى الفرحة التي تكتسح شعورها هذا ما كبح إحساسه بالذنب لأنه تأمر مع الطبيب كي يكذب عليها دخلت إلى المنزل...

ارتدت ثيابها واستعدت للذهاب إلى الجامعة فابتسم ياسين وقال: آه منك أيتها الكاذبة الجميلة.

ضحكت عائدة ضحكة كادت تنافس بها جمهور المسرح الكوميدي وقالت: هي كذبة بيضاء كي أطمئن على صحتك أيها الوالد العزيز، سامح ياسين ابنته على هذه الكذبة هو يعلم مدى حبها وخوفها عليه خرجت عائدة من المنزل متجهة نحو الجامعة فإذا بها تلتقي بسارة آتية نحوها... استرسلت في الكلام قائلة:

أهلا سارة أين أنت ذاهبة؟

أنا قادمة إليك

هل هناك من خطب؟

لقد هاتفتُ آية فإذا بأمها ترد علي قائلة أنها مريضة ولا تستطيع محادثتي فارتابني الأمر فكرت أن نذهب إليها علنا نعرف ما الذي يحدث.

ذهبت الصديقتان إلى آية...

طرقنا الباب ففتحت أمها وأدخلتهما إلى غرفتها...

لقد كانت مستلقية على السرير وآثار الدموع لا تزال واضحة على وجهها...

بمجرد أن رأتهما نهضت بسرعة سلمت على سارة و عانقت عائدة لتسلم عليها أجهشت بالبكاء...

شدها الحنان الكبير الذي يفيض به صدر عائدة الطيبة أدمعت عينا سارة وعائدة لرؤيتها وحاولت معرفة ما الذي يعترها فلم تستطع الإجابة من شدة قهرها وألمها لقد كان الصمت يطبق على شفيتها وكان الحدث أكبر من أن يقال ببساطة

لكنها استجمعت أنفاسها وجدت في تآزر صديقتها معها سندا ودرعا وكان أملها كبيرا في مساعدتهما لها قالت بعد إصرار كبير

من عائدة: لقد تقدم لخطبتي رجل ميسور الحال أقصد رجل
ثري ووالداي يريدان تزويجي وإيقافي عن الدراسة.
نطقت سارة:

لربما سيمنحك هذا الزواج حظ إكمال دراستك يا آية...
هذا هو بيت القصيد يا سارة...

هو يريد أن أتزوجه بعد شهر من الآن وطلب مني أن أترك الجامعة.
قالت عائدة: هذا رجل يريد أن يشتري سعادته بدموعك...
بحريتك... وبحزنك... لا تقبلي بشروطه الوضيعة مهما كانت
الظروف.

قالت آية: ليس هناك ها هو أفسى من أن يحس الإنسان أنه كسلعة
يباع ويشترى في لحظة ضعف يسلب فيها حق التعبير والإفصاح
عن رأيه، لقد سمعته يقول لوالدي أنه «سيسعدني إلى الأبد...»
ضحكت عائدة قائلة: لو كان صادقا فيما يقول لما فكر لوهله
أن يحرمك من إتمام تعليمك الجامعي.

قالت آية: لا أدري هل أرضي نفسي... أم أرضي والدي؟!
سكتت الفتيات الثلاثة...

كان السؤال وجيها لكنه كان صعبا حاولت سارة الإجابة قائلة:
لنحاول إيجاد حل يرضيك ويرضي والدك.

نطقت عائدة: وما هو الحل يا سارة؟
لا أدري لربما ستقبل الزواج وتشرط إتمام دراستها.
قلت عائدة: إنه حل جيد
أطرقت آية رأسها وقبل أن تتكلم إذ بأمها تدخل الغرفة قائلة
بلهجة شديدة: نحن أدري بمصلحتك يا آية وليس صديقتك
لقد كانت أم آية امرأة جاهلة حتى أنها لم تكن تحسن القراءة
والكتابة كيف ستقدر قيمة العلم وليس لها بالثقافة والعلوم
آية صلة واصلت حديثها قائلة:
لن تجنين من دراستك سوى الكثير من الهم والتعب والقليل
من المال.
ردت آية: أنا لا أدرس من أجل المال فقط يا أمي أنا أدرس
لأهداف أسمى...
أريد أن أنفع البشرية وأكتسب الثقافة الاجتماعية كي أستطيع أن
أواجه الحياة...
هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون يا أمي؟
ردت الأم بغضب:
أنت تتقصين من قيمتي بهذا الكلام يا آية
أبدا يا أمي...

العين أبدا لا تعلق عن الحاجب...

تضاءلت نبرات صوت آية وأحست بالإعياء والفشل حتى كاد يغمى عليها من شدة الإحباط الذي وصلت إليه مشاعرها المرهفة. اعتذرت لسارة وعائدة عن كلام أمها الذي جرحهما بعض الشيء قالت عائدة: لا عليك يا آية، إنها أمك وهي بالفعل أدري بمصلحتك منا حاولي جاهدة إقناع هذا الرجل بأهمية مواصلة دراستك، فالحياة لطالما كانت مخادعة.

غادرت عائدة وسارة ولون الحزن يصطبغ على ملامحهما كانت الحصرة تشل تفكيرهما رجعت سارة إلى المنزل انزوت في غرفتها... وكان يبدو عليها جليا الشرود في شيء ما...

غيرت ملابسها وارتدت ملابس رياضية دخلت الغرفة المخصصة لممارسة الرياضة فوجدت نادر أخوها هنالك يمارس رياضة تقوية العضلات مستمعا إلى موسيقى هادئة وراقية لاحظ نادر حزن أخته فسألها: ما بك يا سارة أنت اليوم على غير عادتك قليلة الضحك؟ كانت ستقول ما الذي يجول بخاطرها إلا أنها تراجعت آخر لحظة مغيرة جوابها لا شيء أنا متعبة بعض الشيء.

قال: وكيف حال صديقتك المسكينة آية؟

لماذا تسأل عنها؟

ألم تقل لي أنها سيئة وفقيرة وليست جميلة وأنيقة؟ قهقهه
بضحكة عالية وقال:

يا لها من فتاة بائسة وفقيرة حقا لم يرق لسارة أن يهزأ نادر
بآية صديقتها فأجابته قائلة: هذه الفقيرة المسكينة ستتزوج
برجل ثري جدا.

حملت نفسها وغادرت قاعة الرياضة متجهة نحو المطبخ
أصيبت بالملل من الحوار الذي دار بينها وبين نادر كما أنها لم
تتعود ممارسة الرياضة في نفس الوقت الذي يكون هناك....
دخلت المطبخ فوجدت أمها تحضر الحلوى...

جلست على الكرسي فابتسمت لها أمها قائلة: «ما بك يا سارة،
هل درست اليوم؟

نعم ألم تلاحظي أنني ذهبت مساء؟

لا لم أكن في المنزل كنت عند الحلاقة بالفعل تسريحة شعرك
جميلة جدا...

أريد أن أسألك يا أمي؟

نعم يا سارة، أسألي يا ابنتي!

لو يتقدم لي شاب ثري ويطلب مني ألا أتابع دراستي فماذا
سيكون رد فعلك أنت ووالدي؟

سكتت الأم برهة من الزمن ثم قالت: أنت حرة في اختيارك ولكن من المستحسن أن تكلمي تعليمك ثم أضافت:

ولماذا تطرحين هذا السؤال يا سارة؟

ترددت سارة في البوح بمشكلة آية لأمها لكنها صارتها في النهاية لم يكن لوالدها أي تعليق سوى قولها أن الحب أهم بكثير من المال استغربت سارة وجهة نظرها فسألتها:

هل تحبين أبي يا أمي؟

بالطبع يا سارة.

وهل أحببت قبله والد نادر؟

أثار السؤال انزعاجها فغيرت الموضوع قائلة: لقد تعبت سأذهب لأرتاح في غرفتي...

فهمت سارة أنها تتهرب من الإجابة فاحترمت سكوتها وإذعانها عن الإجابة...

لم تكن الحياة بعيونها وردية اللون...

كان هنالك الكثير من السواد المختبئ وراءها وكان جوابها يدل على أنها امرأة تفتقد إلى الكثير من العطف والحنان جلست في غرفتها وهي تفكر شاردة الذهن أرادت أن تستحضر بعضا من الماضي في جلستها هطلت شتاء خريفية في مخيلتها تذكرت يوما حالك

الظلام كانت تحمل فيه رضية صغيرة اسمها زهرة لم يكن قد مر على ولادتها سوى 3 أشهر لتمرض مرضا شديدا وتغادر الحياة بكت بكاء شديدا أحست لوهلة أنها بين ذراعيها تحملها...
تمنت لو أنها تعود من جديد لتراها وتحضنها بشدة لم يكن سؤال سارة يعيد إليها الماضي...

لقد كان الماضي يسكن حاضرها ويجول بذاكرتها حرا طليقا بكت بكاء الطفل الصغير بكاء مريرا الأم هي مملكة الحنان... لا تستطيع الأيام أن تمحو من ذاكرتها يوما فقدت فيه فلذة كبدها هذا الإحساس الذي يعجز العقل عن تفسيره ولا يفهمه المنطق...
إنها رابطة غريبة رهيبة القوة...

كل أنواع الحب من الممكن أن تمحى من الذاكرة إلا حب الأم لأولادها...

إنه أقوى من السنين هو لغة نادرة تكلم بها الروح وينطق بها الشعور...

وهذا دليل أن الحب أقوى بكثير من الكره فبرغم من كرهها الشديد لطليقتها إلا أنها لا تبكي رجلا ظلمها وأساء تقديرها...
هي تبكي ابنتها الميتة التي لم تعش بالقرب منها سوى ثلاثة أشهر كانت كفيلا أن تبكيها وتكسر قلبها...

كانت كفيّلة أن تختصر أحزانها وتجعلها تغوص في بحر من الحنين ولكن بماذا سينفعها الاحتراق...
الموتى لا يعودون مهما كان قريهم وغلاوتهم علينا...
يتكون بذاكرتنا توقيعا لا يخضع إلى الإلغاء أو التغير كانت سارة تمر بالرواق...
إذ بها تسمع صوت أنين أمها الحزينة طرقت الباب فلم يجب أحد فتحته ودخلت...
وجدتها جالسة على الأرض مسندة رأسها إلى رجليها دنوت إليها وقالت:
ما بك يا أمي؟
نظرت إليها نظرة خاطفة ثم ردت:
اشتقت إلى زهرة يا سارة.
جلست سارة بجوارها وبكت معها قائلة:
لقد مر على موت زهرة عشرون سنة يا أمي ولا زلت تترينها وتبكيها بمرارة وألم.
دخل نادر الغرفة فوجد أمه وأخته على الأرض جالستان تتحيان فقال: لطالما كان لدي إحساس أنك ستثيرين المشاكل لأمي يا سارة.

لقد دخلت وجدتها تبكي فجلست أخفف عنها...
 أنت تكذبين لا أحد يزعم أُمي في المنزل غيرك يا سارة!
 نهضت الأم مزعجة من كلام نادر فردت عليه:
 ليست هي السبب لقد تذكرت أختك المتوفاة زهرة...
 شدّني الحنين إليها فبكيت...
 ولكن أُمي هذا الموضوع...
 قاطعته قائلة:

لقد أسأت إلى أختك سارة ويجب أن تعتذر منها لقد كان نادر
 شاب مستهترا متفاخرا بأموال زوج أمه الذي كان بمثابة والد
 عطوف وحنون لكنه كان يحب أمه ولا يرفض لها طلبا.
 ذهب إلى غرفة سارة ليعتذر منها طرق الباب فلم تكلمه...
 فهم أنها غاضبة منه استند إلى الباب وقال لها:
 أنا أسف يا سارة لقد أخطأت الظن فيك اعتقدت أنك أنت
 من أحزنها وأبكيته...
 أنت تعلمين كم أحبها وأخاف عليها...
 حرمت من والدي صغيرا، ولم أرى شعلة وسط الظلام سواها.
 سكت برهة ثم قال: بما أنك لم تفتحي الباب فهذا يعني أنك
 لازلت غاضبة...

حسنا سأذهب أدار رأسه ليغادر فإذا بها واقفة وراءه تحمل كأس عصير...

كان يبدو عليها كأنها ستنفجر من شدة الضحك قال: أنت هنا تشربين العصير وأنا واقف كالمغفل أعتذر أمام الباب. انفجرت سارة بالضحك وقالت: كيف حتى تأكدت أنني كنت داخل الغرفة؟

لقد رأيت الباب مغلقا فتحت الباب أمامه وقالت: لم يكن مغلقا بالمفتاح...

أنت حقا يا نادر مغفل ومجنون، بدورها عائدة تأثرت بالحالة العويصة التي تواجهها آية هو ليس بالموقف الهين أن يوضع المرء بين خيارين كلاهما ضروري للحياة...

تناولت عشاءها جلست ترسم بأفكارها البسيطة لوحة معقدة لمشكلة آية اكتسح وجهها شحوب أسر...

لا مفر منه إلا إليه ولازمها الصمت كما لو أنه ظلها هذه الفتاة التي يجري في عروقها دم الإنسانية الصارخة...

تتقن معرفة الإنسان هذا ما جعلها تفكر أن الإنسان من حقه أن يختار المصير الذي يلائمه ويرسم خطوط أقداره بيده عله يوم تخونه الأقدار لا يقف كالمجرم في محكمة الضمير ارتدت

عائدة ملابس النوم وهمت إلى فراشها إذ بالهاتف يرن...
 كان إيقاع صوته مخيفاً لم تدري لماذا؟ كان كأنه ينشد لحنا
 حزينا كادت تسقط من سريرها عند نهوضها حملته مسرعة فإذا
 بها عمته نجية تبكي بكاء مريرا وتلفظ كلمات متشابكة وعباراتها
 لم تكن مفهومة كأنها تتكلم بلغة أجنبية قالت عائدة:
 ما بك يا عمتي؟ توقفي عن البكاء والكلام في آن واحد كي أفهم
 منك شيئا.

دخل ياسين الغرفة وحمل السماعة عنها فقال: هدي من روعك
 يا نجية ما الذي يبكيك؟ التقطت نجية بعضا من أنفاسها
 التي كانت تهوي في انحدار شديد لقد مات زوجها.
 هذا الرجل الذي احترق تعذيبها والإساءة إليها...

ها هي اليوم تهدر كل دموعها حزنا عليه لطالما تمنى موته
 لعلها تتحرر من سجنه المظلم لكنها اليوم تتمنى لو يعود
 ويحيي كي يكمل بناء سجنه باهانات لؤمه وشره كان بداخلها ذلك
 الإحساس بالفراق الأبدي الذي يعاني منه الأحياء عند فقدان
 أعز الأشخاص عليهم لقد قالت يوما لعائدة أنه لم يقل لها
 يوما أبدا كلمة أحبك...

ها هي اليوم تعذقه بكل كلام الحب والحنان بدموعها الغالية...

المرأة هذا المخلوق المصنوع من كتلة مشاعر رقيقة ومرهفة...
ماذا لو كانت هي التي ماتت هل كان سيرثيها؟
هل كان ليبيكيها...؟

هو احتمال ضئيل جدا لكنه وارد تأسف ياسين لموت زوج أخته...
ظل صامتا وفي عينيه أشياء تشبه الدموع إلا أنها لم تكن
متأهبة للسقوط كانت دموعه مختبئة تخجل من الظهور لا لأنه
رجل وإنما لأنه لا يريد أن يبكي رجلا احترف صنع المجازر في
المشاعر لم يعرف الحب يوما طريقا إلى قلبه...

كانت كل الجسور المؤدية إليه مقطوعة ولم يكن للود والرحمة
في قلبه مكان لطالما ضرب نجية ضربا مبرحا لأنفه الأسباب لم
يكن لديه شيء يدل على الرجولة سوى يديه ولسانه المكبل
بالألفاظ البذيئة المنحطة التي تنقر منها الآذان البشرية...

إلى أين سيهرب من الجرائم التي ارتكبتها ضد المسكينة نجية!
لقد سامحته لنها طيبة... فهل سيسامحه الله ويكون معه
غفورا رحيفا أم أنه سيحاسبه حسابا عظيما؟

سيذهب بعد الموت إلى المجهول..

هذا الذي عاش بقلب مشلول...

لا يستطيع أن يقول أحبك لكنه يستطيع أن يدمر مدينة كاملة

للحب ذرفت عائدة دمعاً على عمتها لطالما كانت الصدر الحنون والمأوى الذي تدفأت بين زواياه لقد كانت نجية قوية وصامدة لطالما كان بداخلها حزن وعاصفة وملامحها تشع بالحب والعاطفة كيف استطاعت أن تنحي اليوم في موته وهي التي طالما تدربت على الوقوف بعد السقوط في حياته؟ هاته هي الحياة مباغثة حتى الجنون تصبب جبينها عرقاً وأحست بالدوار وكاد يغمى عليها لم تعد تقدر على النظر إليه... لقد كان موته موحشاً كحياته...

تسلل عقلها إليها خلسة عن أحاسيسها فنهضت وأتفتظت نادت أولادها مسحت دمعهم واحداً بواحد حتى تبلبل المنديل... جلست والمنديل بيدها والدمع لا يزال ينسكب من عينها لكنها تشجعت من أجل أولادها وقالت: هي الدنيا هكذا... كلنا منها ذاهبون كما كنا من قبل قادمون...

سنغادر ولن يكون للرحيل منها مفر اليوم مات والدكم لكنكم أمامي أحياء ترزقون سأكون لكم خير أم وستكونون لي العز والسند لقد كان ماجد أكبر إخوته في السابعة عشر من عمره شاباً ناضجاً واعياً لم يكن له الحظ في إتمام تعليمه لكنه كان مؤدباً وحنوناً كأمه...

ضم إخوته الثلاث بشدة إلى صدره وبكى قائلاً: هذا هو اليوم الوحيد الذي أحسست فيه أنني أحب أبي لقد مات ولو ناديته أبي لن يجيب ولكني طوال حياته كنت أناديه أبي فينهال علي بالשתم قبل حتى أن يعرف ماذا أريد...

ليتني عرفت كما أعرف الآن كم هي جميلة كلمة أبي...
أطرقت نجبية رأسها...

كان وقع كلام ابنها عليها كرصاصة تخترق القلب لا تقتله ولكن لتعذبه بكت بشدة لأنها بكت عليه لقد رأت في عيون أولادها يتما قاهرا هو ليس بجديد فهم منذ الولادة كانوا يتامى الأب بكت من القهر وتساءلت في نفسها كيف طاعته نفسه أن يمنح لأولاده حق اليتيم في حياته؟

وكيف كان يعيش دون عاطفة أبوية؟

هل كان له قلب من لحم أو من حجر؟

وحتى الحجر تتفجر منه الأنهار وتندفق منه المياه لا بل إنه قلب من حديد أو جليد لكن الحديد ينصهر والجليد يذوب غرقت نجبية في بحر من التساؤلات ولم يكن لأسئلتها الكثيرة سوى أجوبة مبهمة طلعت شمس صباحها دونه...

كان مظهر المنزل أنيقا وهادئا لقد اعتاد الصراخ والشتم صباحا

لأهم وأثفه الأسباب...

وبدأ أفراد عائلته بالتوافد إلى المنزل لحضور الجنازة لم يكن يوماً سعيداً بالنسبة لنجية فمهما يكن هو يوم فراق زوجها... فللموت صدمة قصوى تلعب فيها العواطف دور البطولة ولا يبقى للعقل والتفكير فيها دور حتى ولو كان صغير أصبح المنزل مظلماً كأنه الصباح تنكر في ثياب المساء، ولم يعد يسمع فيه سوى أصوات النحيب والبكاء لقد كان له إخوة ذكركين وأربعة إناث وبالرغم من أنه لم تكن له علاقة جيدة بهم إلا أنهم ييكوه بكاء شديداً فخير الموت أقوى وقع على الآذان من خبر الولادة...

هو لا يطربها مثله أنه يؤذي طبلتها إلى أبعد الحدود، ولا يكفيه ذلك هو يخرب شرايين العقل فيكف عن التركيز والتفكير ويحطم أوردة القلب فيختل فيه ميزان المشاعر ولا يبقى للإنسان بعد سماعه سوى معاهدة كل بنودها تنص على البكاء والدموع مرت الأيام بسرعة ولم يبقى من الموت سوى الذكرى عادت نجية إلى الحياة بقلب سليم بعد أن كان عليلاً ومهموماً ذهبت لقضاء بعض الأيام مع عائدة وأخيها ياسين... فشعرت هنالك بالراحة والاسترخاء ولم يعد بهمها شيء سوى

سعادتها وأولادها...

هذه السعادة التي انتحرت من شرفات قلبها منذ أن تزوجت بكته كأنه حبيب واستطاعت أن تنساه كما لو أنه كان غريب ابتسمت عائدة لعمتها وعانقتها احتوت حزنها وألمها... واستها في فقدان زوجها...

تذكرت كم كانت لها أما ثانية بعد موت والدتها استفاقت في يوم ربيعي جميل على صوت عصفورها العذب الشجي... فكرت أن تغير الجو وتحسن من مزاج عمتها أكثر فدعتها للذهاب في نزهة على شاطئ البحر فوافقت نجيبة على الفور ركبت عائدة وعمتها الحافلة وعلامات السرور بادية على وجهها جلست في المقعد المقابل لها إذ بها ترى صديقتها آية لم تكن وحدها كان هنالك شاب برفقتها خجلت أن تذهب وتسلم عليها فتصرفت كما لو أنها لم تراها نزل الجميع من الحافلة... إذ بآية تتبه لوجود عائدة وعمتها...

ذهبت وسلمت عليهما قائلة: لقد كنا على متن الحافلة نفسها يا عائدة كيف حالك؟

أنا بخير وأنت هل توصلت لحل مشكلتك يا آية؟

أدارت آية رأسها إلى الورااء مشيرة بيدها إلى الشاب الذي كان

بجانبتها وقالت لعائدة:

هو ذلك الخطيب الذي جاءني طالبا يدي للزواج لقد وافقت
وتمت خطوبتنا...

ستكونين مدعوة لحفلة الزفاف بعد شهر أنت وسارة فرحت
عائدة بخطوبة صديقتها فردت قائلة:

مبروك يا آية أتمنى لك زواجا موفقا بإنشاء الله ولكن هل
سيسمح لك بإتمام دراستك نعم لقد أقنعتته بذلك فوافق إنه
شخص طيب ومتفهم ليس كما ظننته مسبقا...

هو لا يريد أن يبني سعادته على حساب بأسني وتعاستي ازدادت
عائدة غبطة وبهجة لسماع هذه الأخبار هكذا هي الحياة
الموت يحزننا والحب يصنعنا، يجعلنا نولد من جديد وتنفس
بغير الطريقة التي عهدناها... لربما هو الهواء أصبح أكثر نقاء
أم أنها كل الأشياء تصبح بالحب أجمل وأرقى هذا الحب الذي
دخل حياة آية جعلها مشرقة وجميلة أكثر...

فأصبحت عيونها تشع جمالا ورونقا لم يكن من قبل هاته
الفتاة الفقيرة والتي لم تعرف من الدنيا سوى دراستها...
صداقاتها وأسرتها التي كانت لا تكاد تحصل على قوت يومها
ستصبح زوجة لرجل ثري جدا وهو كما يبدو لها أنه لطيف

ومتواضع افتقرت فتاتان لكن كان هناك سؤال غامضا يدور برأس عائدة ما الذي يجعل رجلا ثريا يستقل الحافلة مع خطيبته؟ أليس من المتعارف عليه أن يكون للأشخاص الذين بمكانته سيارة فخمة أو حتى سائق؟

لم تستطع عائدة الاحتفاظ بهذا الإبهام لنفسها فحاولت أن تقاسمه مع عمته نجيبة ابتسمت نجيبة قائلة:
لا يمكن معرفة الأسباب والظروف يا عائدة لربما سيارته معطلة ولربما خجلت آية أن تركب معه لوحدها...

تعرفين كم هي شديدة الحياء اقتنعت عائدة بهذا الجواب وبين سؤال وجواب وحكايات لا يمكن إنهاءها وصلت الفتاة وعمتها البحر كان أكبر وأجمل مما كان عليه بالنسبة لنجيبة فأخر مرة رأته فيها كانت مارة بالصدفة مع زوجها المتوفى... تذكرت أنها طلبت منه أن يتوقف لوهلة كي تتأمل هدوءه وزرقته فلم تكمل جملتها إلا وكانت صفعته أكبر سرعة من صوتها المرهف جثت على ركبتيها تبكي وتبكي وقالت:

«من المؤسف أن يكون البحر جميلا اليوم ويكون بشعا وصاخبا كذلك اليوم الذي صفعني فيه زوجي لأنني أردت أن أتأمل البحر. تحيرت عائدة وقالت: صفعك لمجرد أنك أردت الاستمتاع بجمال

البحر؟ هذا غريب!

ولم يكتفي بذلك بل أنه أضاف أنه من سوء الأدب أن أطلب

منه شيئاً كهذا هذا حقاً يا عمتي عجيب نعم يا عائدة...

لقد عشت في حياتي كل ما هو غريب وعجيب...

أشياء تقال وأخرى من الأخرى أن لا تقال صمتت عائدة هنيهة

ثم استرسلت في الكلام قائلة:

أنظري إلى البحر يا عمتي كم هو جميل بقدر ما هو جبار وجريء...

يتحدى كل العيون التي تنظر إليه ويبقى جميلاً مهما كانت

بشاعة القلوب من حوله لم يكن البحر في عيون عائدة جميلاً

وأنيقاً لقد كانت تدرك كم كان غامضاً وعميقاً.

ازداد تعلق نجية بعائدة كما لو أنها ابنتها...

كانت ترى فيها حنان أخيها ياسين وطيبته النادرة وأيقنت كم

تكون الحياة عادلة حين نشك في إنصافها ها هي ذي سارة تفتقد

إلى الكثير من الحنان فوالدها يسافر طوال الوقت وأحياناً لا تراه

لمدة شهر فكانت تعوض هذا الحرمان بإسرافها أموالاً طائلة في

اقتناء الملابس والإكسسوارات وها هي آية تعيش فقراً مدقعة

ويبدو أن الحياة ستبتسم لها...

وعائدة التي حرمت من حنان الأم ودفئها عوضها الله بأب كان

نعم الأب والأم في آن واحد...

في الكثير من الأحيان نخطأ تقديرننا للأقدار فلا نرى سوى النصف الفارغ من الكأس دون أن نغير اهتماما لحجم الكأس لربما كان أكبر مما نراه ولكن انعدام القناعة ومعارفنا الضيقة بالأشياء تجعلنا أصغر من أن نقتنع أنه يكفيننا ولربما يفيض ماذا لو كانت حياتنا كلها موضوعة في كأس؟

وكان لنا أن نختار كيفية ملاءة واختيار حجمه وحتى لونه وشكله هل كنا لنختار أقدارًا أحسن من التي اختارها لنا الله؟ إنه يقول في سورة البقرة وهي أكبر سورة في القرآن الكريم " قليلا ما يشكرون "

هي آية كافية كي ندرك حجم السعادة التي نعيشها تعلم عنها القليل ونجهل الكثير وجهلنا للأشياء هو ما يتعبنا ويرهقنا. يقول الكاتب الفرنسي فيكتور هيغو: تبدأ الحرية عندما ينتهي الجهل...

هذا ما يعني أننا نبحث في بئر السعادة في حين تكون بداخلنا تجول بأعماقنا وبئرها ليس سوى قناعاتنا وتحررنا من الجهل. فالجاهل يفعل بنفسه ما لا يفعله العدو بعده سارت عائدة ونجبية في طريق العودة...

كان منظر الغروب جميلا جدا لكنه لم يكن أجمل من عائدة التي كانت يومها ترتدي فستانا أحمر طويلا وشالا فوق رأسها أسود وحذاء صيفيا جميلا تظهر منه أظافرها الصغيرة النظيفة المدهونة بطلاء أظافر أبيض لامع كانت كما لو أنها تستعد لتصدر غلافا للكتاب الفرنسي: «le rouge et le noire»

دخلت عائدة وعمتها المنزل لقد كان هادئا لم يكن ياسين هناك استراحت نجية قليلا من تعب السير ثم دخلت غرفتها وهمت لتجمع ثيابها تبعثها عائدة فوجدتها بصدد التحضير للمغادرة....

ابتسمت لها وقالت بكل ثقة: أنا لن أتركك تذهبين اليوم يا عمتي. فردت نجية: شكرا يا عائدة لقد استمتعت كثيرا معك ويجب أن أعود إلى منزلي أولادي في حاجة إليّ حتى ماجد هاتفني اليوم يسأل عن موعد عودتي تكلمت عائدة بإلحاح شديد يوم واحد يا عمتي أرجوك، ضعفت نجية أمام إلحاح عائدة وإصرارها فقررت البقاء ليوم آخر حسنا سأبيت الليلة هنا وسأذهب صباحا قفزت عائدة على عمتها و عيونها تضحك من الفرح قائلة:

أحبك جدا يا عمتي بينما كانتا تتبادلان أطراف الحديث إذ بصوت باب المنزل يفتح...

إنه ياسين لقد جاء وعلامات الشحوب والتعب باقية على وجهه

كان بدوره يتأهب لمغادرة الحياة ولكن دون أن يكون له حقائق أو ثياب أو حتى رخصة سفر، كان يعلم أن سرطانًا ينمو بجسده ويحيا ليموت هو إنه مرض لا يرحم المصاب به...

هو لا يعترف بقوة مناعتنا يعترف فقط باستسلامها له ولمؤامرتة الخبيثة ضد الحياة كيف لرجل طيب مثل ياسين أن يحارب مرضا مميتا كالسرطان؟

لم يكن يريد شيئاً من الحياة سوى سعادة ابنته اليتيمة نظرت عائدة إليه وعلامات الخوف بادية على وجهها هل أنت متعب يا أبي؟ نعم بعض الشيء سأدخل غرفتي لأرتاح...

حسننا سأدخل المطبخ كي أحضر العشاء وسأناديك حين يجهز كان كما لو أنه يخبأ وراءه شيئاً...

ابتسم ابتسامة ممتزجة بالإرهاق وقال: تفضلي يا نجيبة لقد أحضرت لك هدية بسيطة فرحت نجية بهذه الهدية أخذتها وفتحتها فوجدت بداخلها زجاجة عطر جميل تفوح منه رائحة الياسمين. قالت له شاكرة:

شكرا لك يا ياسين هذا لطف منك يا أخي العزيز كما لو أنك تعرف ذوقني في العطور...

رد قائلاً: عندما أموت يا نجيبة ستتذكريني كلما شممت رائحة

هذا العطر...

سرت رعشة قوية على قلب عائدة ألمها هذا الكلام لم تعد تستوعب لماذا يتفوه والدها بمثل هذه الكلمات نطقت قائلة: لن تموت يا أبي وتتركني كما تركتني أمي لم تكمل جملتها إلا وكانت دمعة تحدر من خدها الذي لو نطق لصرخ بشدة قائلاً: أنقذوني من كل هذه الدموع أثارت عبرات عائدة شفقة عمته نجيبة واستيائها من كلام ياسين...

فردت عليه قائلة: ما فائدة العطور التي لا تعطرنا إلا لتبكيها يا ياسين لقد جرحت مشاعر عائدة بكلامك هذا وكنت حقاً قاسياً، ثم أضافت والدم يغلي في عروقها من شدة الغضب الموت كالحرية لا يعطى على جرعات إما أن تكون حياً أو ميتاً لذا لا داعي لذكره... هل لرجل حر وطييق أن يكتب رسالة تشبه رسالة سجين شب في قصر حرية الحريق؟

أطرق ياسين رأسه ثم قال:

إلا أنا يا نجيبة سيكون موتي على جرعات لم يكن يريد الاعتراف والإفصاح عن مرضه لكنها كانت زلة لسان خارجة عن نطاقه حاول أن يغير مجرى الحديث عله يجعل عائدة ونجيبة يتغاضيان عما بدر منه من كلام فقال:

لقد ظننت أنني بالمزاح معكما يا نجيبة أخفف من تعبي
لكن على ما يبدو أنني أخطأت، رفعت عائدة رأسها مسحت
دمعها قائلة: لا عليك يا أبي كل مزاحك مقبول ستشفى بإذن الله
وستعيش طويلا.

ابتسم ياسين وتأكد أن ابنته لم تعد غاضبة منه اتجه إلى غرفته...
استراح لمدة نصف ساعة ثم دخل مكتبه اختار كتابا عن
العلامة القسنطيني عبد الحميد ابن باديس...
أحد أعمدة الجزائر...

مؤسس جمعية العلماء المسلمين...
هذا الرجل الذي حارب الجهل والأمية ودافع عن القيم
والمبادئ والإنسانية...

خرج إلى الحديقة جلس على الكرسي تحت شجرة البرتقال كان
الجو جميلا والسماء صافية كما كان مظهر النافورة في فناء
الدار مبهرا بتدفق المياه فيه دخلت نجيبة وعائدة لتحضير
العشاء فإذا بهما تلمحان ياسين جالسا في الحديقة ابتسمت
عائدة وقالت لعمتها:

لطالما أحب أبي الكتاب وكان أقرب إلى روحه من أي شيء آخر.
ردت نجيبة قائلة:

هذا ما جعل منه رجلا مثقفا ومؤدبا وظريفا وبعيدا كل البعد
عن العنف والغطرسة والخشونة.

في الكثير من الأحيان نجد العديد من الأشخاص يبحثون عن
الثروة وهي ليست سعيدة هي أقرب مما يتخيلون...
هي في منازلهم...

فوق رفوفهم وفي خزاناتهم وفوق مكاتبهم هل هناك بيت
يخلو من الكتب؟

أصغر كتاب ممكن أن تحمله قد يكون أوفى صديق لنا يرشدنا في
أخطأنا ينقذنا من عثراتنا وينير طرقنا المظلمة.

إن القراءة هي بالفعل أحسن سلطة يمارسها الإنسان كي يعيش
حرًا متحررا من قيود الجهل وبئر الأمية العميق

أكملت عائدة مهامها المنزلية وخرجت مسرعة إلى الحديقة
لمناداة والدها للعشاء... كانت تسير كما لو أنها فراشة جميلة
تطير وآثار الربيع كلها مجتمعة على جناحيها... إلا أنها انكسرت
وسقطت أرضا واستحالت الفراشة البديعة إلى عصفور وحيد
يرتجف تحت حبات المطر كان ياسين ساقطا أرضا وغمامة
بيضاء تكسو وجهه والبرد يعتري أطرافه...

كما لو أنها طفرة شتوية أخلت بجمال الربيع أمسكته عائدة

وصرخت بشدة: عمتي... عمتي أبي واقع على الأرض.
هل كان المزاح عن الموت إشعار عن قروب مواعده أمر أن هلال
الموت انعدمت رؤيته فتأجل الموت ليوم آخر؟
كم أنت مبالغتة أيتها الحياة خرجت نجبية مسرعة فوجدت
عائدة تحضن والدها وتبكي بكاء شديدا...
جست نبضه ورشّت وجهه ببضع قطرات من الماء فاستفاق
مرعوبا...

لم يكن يعي ما حدث له حتى أن مظهر عائدة وهي تبكي بدا
له غريبا وقبل أن تبادره بالسؤال عما حصل له كان أسرع منها
لشدة حبه لها...

مسح دمعها وقال لها: لا تقلقي يا ابنتي أنا بخير... فقط
غفوت من شدة تعبي وإرهاقي.

فرحت عائدة لرؤيته مجددا على قيد الحياة بعدما ظنت أنها
ستفقدته إلى الأبد ساعدته للنهوض والمسير حتى غرفته
استلقى على سريره مبتسما...

كانت دائما ابتسامته ردة فعل ذكية منه كي لا تشعر عائدة
بمرضه القاتل دخلت نجبية الغرفة وبين يديها شوربة الدجاج
التي يحبها وكأس عصير وسلطة الباذنجان المشوية كان منظر

الكل شهيا ولذيذا لكن ياسين امتنع عن الأكل لأنه كان يشعر ببعض الغثيان قالت له نجيبة:
لا تقلق ياسين سيزول تعبك وستعود إلى وضعك العادي لكن يجب أن تأكل شيئا فبطنك فارغة منذ الصباح.
سكت ياسين...

كان الكلام الكثير بين شفثيه يصعب عليه مهمة الاختيار بأي الكلمات يبدأ ابتسمت نجيبة في وجهه وقالت: لا تحزن يا ياسين بح لي بما يختلج بين طيات صدرك لا تواجه الألم لوحدهك فإن كان لديك شيئا لا تريد قوله لعائدة فكن على يقين أنني لن أفشي بسرك أبدا يا أخي، شجعت هاته العبارة ياسين فنطق قائلا: ضميري يؤنبني لقد كانت الجملة قصيرة ولكن معناها كان كبيرا ومثيرا للتساؤلات فردت نجيبة: ما الذي يؤنبك؟ أنت شخص طيب بل أنت الطيبة نفسها تجري وتمشي وتنفس واليوم يؤنبها ضميرها... كيف هذا يا أخي...؟ أرجوك تكلم قبل مجيء عائدة.
وأين هي عائدة؟

لقد ذهبت إلى الصيدلية لإحضار الدواء

ضميري يؤنبني لأنني كذبت على عائدة وأخبرتها أن أمها توفيت...
لا داعي لكل هذا التأنيب يا ياسين فلربما ماتت فعلا بعد أن

افتترقتما لقد كانت صغيرة السن عندما طلقت أمها، لم يكن
بوسعي أن أشرح لها ظروف انفصالنا ولماذا افترقنا كانت أصغر
من أن تفهم معنى الطلاق...

اضطرت أن أكذب عليها مدعياً أنها ماتت...

سيحاسبني الله

يا نجية

ما يحيرني أكثر لماذا لم تبحث رجاء عن ابنتها طوال هاته السنين...
كيف لأمر أن لا يهزها الحنين لصغيرتها غريب جداً...

فتح الباب فدخلت عائدة تحمل قنينة الدواء ولون الحزن
يغطي عينيها تخيلت لو أن والدها توفي وتركها يتيمة الأبوين
كيف ستكمل حياتها دون سند...؟

كيف ستعيش يتيمة إلى الأبد...؟

يبكي الزمان أحيانا...

وأحيانا أخرى يضحك ويبتسم وتزداد بتلات أزهاره جمالا ورونقا
وبين أحزاننا وأفراحنا تستفزنا الأيام مخادعة نظن أننا سعداء
في حين أن الحزن يملأ قلبنا ونعتقد أننا بؤساء وأفراحنا تحضننا
تقبلنا تعانقنا دون أن نراها...

ما أكبر البصر وما أعظم البصيرة...

تأرجحت حياة عائدة بين الخوف على والدها وحبها وإتقانها لممارسة مهنتها ألا وهي المحاماة استطاعت أن تفتح لها مكتبا بسيطا وهذا بالمساعدة المادية التي قدمتها لها صديقتها سارة بعد إصرار طويل ورفض واضح من قبل عائدة... لكنها استطاعت أن تقنعها أخيرا...

كان ياسين سعيدا جدا لأن ابنته أصبحت محامية... فلطالما كان حلمه المحاماة لكن ظروفه حالت دون إتمام دراسته الجامعية، فقرر أن يفاجئها في مكتبها الجديد اقتنى لها باقة من الزهور الجميلة البيضاء والوردية اللون واستقل سيارة أجرة متجها إلى المكان الذي يتواجد به مكتبها نزل حيث كانت هنالك لافتة تحمل اسمها... صعد الدرج فلمح مكتب السكرتيرة الخاصة بها...

طلب منها مقابلتها مدعيا أنه أحد أفراد عائلتها فسمحت له بالدخول، دخل متخفيا وراء باقة الورد الجميلة فتحيرت لرؤية هذا! الشخص الغريب الذي يدخل وبين يديه باقة وورد كبيرة مغطية وجهه!

قالت: مرحبا تفضل...

سكت ولم يجب كي يمنح الإثارة وقتا إضافيا فقالت: مجددا

تفضل سيدي بالجلوس من فضلك...
 كما يقال الجريمة لا تكون أبدا كاملة...
 كيف لا تتعرف عليه وهي تحفظ قمصانه وسراويله وحتى
 حذاءه؟ كيف يخفى عليها أنه من يحمل باقة ورد جميلة لا بد
 أن تكون بداخله باقة حنان أجمل...
 أراد أن يلعب معها لعبة التخفي فوافقت لذلك لم تفسد عليه
 محاولته في الإفصاح عن مدى حبه وسعادته بنجاحها.
 قالت له: أرجوك سيدي أن تخبرني بمشكلتك دون أن تنزع هذا
 القناع الوردي عن وجهك.
 ارتبك ياسين واختلط عليه الأمر ولشدة ارتبائه سقطت وردة
 كانت تغطي فمه فقالت:
 بما أن الوردة التي سقطت كانت تغطي فمك فهذا يعني أنه
 يجب عليك أن تتكلم في الحال...
 ضحك ياسين ضحكة صغيرة وقال: مشكلتي أنني أحبك يا عائدة...
 اغرورقت عينا عائدة من شدة الفرح...
 نهضت من كرسيها وقالت:
 كنت سأعرفك حتى ولو كنت تحمل بستانا من الورد يا أبي
 كانت البهجة تحاصره من كل جانب حتى أن عينيه فاضت بالدموع...

أحس بنجاح ابنته وسموها والمكان العالي الذي تقبع فيه فقال:
أردت أن أفاجئك يا عائدة بزيارتي لأهنتك على مكتبك الجديد
حملت عائدة مزهرية وملأتها بالماء وضعت بها الزهور فبدا
مكتبها أجمل بكثير مما كان عليه.

جلس ياسين وابنته يتبادلان أطراف الحديث حتى دق الباب...
لقد كانت صديقتها آية التي جاءت ببطاقة الدعوة الجميلة
جدا تحمل اسمها واسم خطيبها...

سعدت عائدة بهذه الدعوة ووعدها بالمجيء لحضور حفل زفافها.
رتبت دفاترها وهمت بالخروج من المكتب مع والدها...
كانت متعبة فقررت العودة باكرا إلى المنزل وهما في صدد
العودة لفت انتباهها فستان جميل أخضر اللون كان معروضا
على واجهة المحل...

أعجبت به حتى أنها استأذنت والدها للدخول إلى المحل كي
تعرف كم ثمنه...

قالت للبائعة:

من فضلك سيدتي كم ثمن الفستان الأخضر على اليمين في
واجهة المحل.

فردت البائعة بكل لباقة:

٥ملايين دينار جزائري إذا أعجبك يمكن أن أحضره لك أنت في
محلك أنستي...

اندهشت عائدة لغلاء سعره مثلما استغربت لروعة تصميمه...
كان روماني التصميم بكم واحدة ومرصعا بالأحجار الصغيرة
الجميلة فخرجت ووقفت برهة تتأمله مرة أخرى قال ياسين:
لابد من أنه باهض الثمن؟

فردت عليه:

أجل يا أبي...

سأخرج غدا بصحبة سارة للتسوق علي أجد فستانا أقل منه
سعرا...

ابتسم وقال:

سيكون كل فستان ترتدينه جميلا يا ابنتي فجمال الروح ينعكس
بالضرورة على الجسد...

لمجرد عودتها إلى المنزل هاتف سارة

ألو: مرحبا يا سارة...

أهلا يا عائدة كيف حالك؟

بخير وأنت؟

الحمد لله هل دعتك آية لحفل زفافها؟

نعم...

لم أكن في المنزل حين قدمت أعطت الدعوة لأمي...
لقد هاتفتك بهذا الشأن أود لو ترافقيني إلى السوق لاقتناء
فستان وشراء هدية لها بالطبع يا عائدة أنت أكثر من صديقة،
أنت بمثابة أخت لي.

فرحت عائدة ونامت مطمئنة البال فهي تثق في الذوق الرفيع
لسارة...

استيقظت صباح الغد مفعمة بالنشاط شربت قهوتها ارتدت
ملابسها حملت حقيبة يدها الجميلة واتعلت حذائها...
هاتفتم سارة مجددا فأخبرتها أنها قادمة إليها بسيارتها...وقفت
أمام النافذة تنتظرها فإذا بها تراها تركن السيارة أمام حديقة
المنزل...

نزلت مسرعة واتجهتا نحو السوق والفرحة تغمرهما...
كانت الفساتين المعروضة جميلة ولكنها لم تكن تملك سوى
ثمن فستان متوسط الثمن وبالرغم من إلحاح سارة كي تساعدتها
ماديا إلا أنها رفضت مساعدتها رفضا قاطعا قائلة:
أنا أعلم كم أنت كريمة يا سارة وأنا جد ممتنة لك لأنك
ساعدتني على فتح مكثبي...

جميلك لا أنساه ما حبيت...

ابتسمت سارة وسعدت كثيرا لأنها محظوظة بصديقة مثل عائدة...
هاته الفتاة الطيبة النبيلة التي تخلو معاملتها من الأناية
والمصلحة وتتسم شخصيتها بالقناعة والأخلاق الحسنة...
هي تعلم أن صديقتها فتاة ثرية جدًا...

من أن تستغل ثراء سارة وكرمها لتشتري كل ما يخطر...

ببالها هناك أشياء في حياتها لا تباع ولا تشتري...

إنها أخلاقنا وأصالتنا وطيبتنا والأجمل هو حسن نيتها أن تجد
صديقا يحبك لشخصك فهذا يعني أنك ثري حتى ولو كنت
فقيرا أما أن تكون ثريا، ولا تجد بين أصدقائك ولو شخصا
واحدا يحبك لنفسك... فيا لبؤسك وفقرك الفضيع...

اشتريت عائدة فستانا جميلا أحمر اللون واشترت سارة كذلك
فستانا جديدا أخضر اللون كلون عيونها الجميلتين وحذاء أسودا
كلون شعرها الطويل ولم يتبقى سوى الهدية... قررت سارة أن
تشتري... لها قلادة من ذهب فدخلت الفتاتان إلى محل الصائغ...
اختارت سارة واحدة من أجمل ما يعرضه للبيع...

فأخبرتها أنها تحب كثيرا الفراشة...

اختارت لها قلادة معلقة بها فراشة جميلة وهما في صدد

العودة إلى المنزل تلقت سارة اتصالا من أمها

ألو أمي...هل هنالك من خطب؟

لقد تعب والدك كثيرا فأخذناه إلى المشفى... التحقي بنا إلى
هنالك...

أي مشفى يا أمي؟

مصطفى باشا

ألم الحزن بقلب سارة وانتابها القلق كان ثمة شيء بداخلها يبكي
بمرارة...

لقد كان والدها طيب القلب، بشوشا لا يعرف التجهم طريقا إليه
وكان دائم المزاج، سعيدا ولا طالما كانت أم سارة تقول أن الله

عوضها عن زوجها الأول بزواج أبسط ما يقال عنه أنه مثالي
لقد ورث عن والده مالا وفيرا لأنه كان وحيد والديه ومجموعة من
الشركات الضخمة التي لم يتردد أن يمنح لنادر ابن زوجته واحدة
منهما، كان بمثابة أب حقيقي له حتى أن نادر حزن حزنا شديدا...
لانتكاسته الصحية أوصلت سارة عائدة إلى...

المنزل واتجهت مسرعة إلى المشفى كانت تجري كطفل صغير
أتعبه المسير ولم يعد برأسها عقل يتحمل التفكير...

وجدت أمها وأخوها نادر جالسين بالرواق ينتظران خروج الطبيب.

سألت أمها والحروف ترتجف في فمها ارتجافا ما الذي حصل
لأبي يا أمي؟

لقد كان كعادته يتحدث مع نادر عن أمور الشركة...

فانتكست صحته فجأة تصبب جبينه عرقا وهوى أرضا كورقة
خريفية صفراء نقلناه بسرعة إلى المشفى والأطباء بصدد معاینته
خرج الطبيب من الغرفة وطمأن سارة ونادر عن الحالة الصحية
لوالدهما قائلا:

لا تقلقو...

لا شيء مهم يذكر...

صحته جيدة...

أصيب بإغماء نظرا لفرط إرهاقه وتعبه.

لم يمر سوى أربعة أيام على معافاته وعاودته الانتكاسة
الصحية لكنها أكثر وقعا على سارة من أزمته الأولى ...
لكنه سرعان ما تجاوزها ببعض المقويات دخلت سارة غرفته
تحمل له كأسا من عصير الرمان الذي كان يحبه وقالت:

كيف حالك يا والدي

الحمد لله أنا أحسن حالا.

لقد حضرت لك عصير الرمان الذي تحبه...

تحسنت حالته عما قبل هذا ما جعل سارة تستعد لحضور حفل زفاف آية...

كان اليوم خميسا جميلا ومزهرا حين استيقظت ذهبت إلى الحلاقة وصففت شعرها كما ينبغي لحضور الحفل عادت إلى المنزل لبست فستانها الجديد واكسسواراتها وضعت على وجهها بعضا من مساحيق التجميل وذهبت إلى الحفل لتجد عائدة قد سبقتها إليه.

لقد كان الحفل فاخرا ومميزا...

وبالرغم من أن آية لم ترتدي ما هو باهض الثمن إلا أنها ظهرت في جمال خلاب يجذب الرأي إليه... كانت ثيابها بسيطة وأنيقة توحى بكل ما يحمله قلبها من طيبة وتواضع...

قدمت لها سارة القلادة الذهبية...

فأعجبته كثيرا وضعتها في رقبتها فزادتها جمالا ولم تتردد عائدة في شراء هدية ثمينة كذلك فقد اشترت لها خاتما من الذهب الخالص.. لقد كان بإمكانها أن تقتني فستانا أكثر غلاء من الذي اشترته لكنها أثرت على نفسها بشراء هدية ثمينة لآية...

فتاة متعلمة وراقية كعائدة تدرك تماما أن الهدية تمثل صاحبها

لذلك قررت أن تجمع المال لاقتناء الخاتم الذي دفعت ثمنه بالتقسيط...

فرحت آية بهدايا صديقتها الجميلتين وأحست كم هي غالية في نظرهما...

مشت وسط الحضور في قاعة الزفاف كأنها أميرة متوجة وكل نظرات المدعوات كانت موجهة نحوها هاته الآية التي كانت آية في الرقة والجمال كانت مشيتها أشبه بمشية طاووس جميل يختال ويتبخر...

بالرغم من أن هذا الطاووس كان يحمل قلب حمامة بريئة... وكل الألوان التي ارتدتها زادتها وسامة كأنما صممت خصيصا لتكون لها لا لأحد غيرها إلا أنها لم تكن تعلم وهي تبتمس أنها ستبكي بكاء مريرا وهي ذاهبة إلى جنازة والد سارة... لقد مات والد سارة صبيحة اليوم الموالي لعرس آية كان الخبر أشبه بطعنة خنجر لعائدة حين هاتفها سارة قائلة بصوت خافت لا يكاد يسمع: لقد مات والدي يا عائدة. اكتسح الشجن فؤاد عائدة واستجمعت بذاكرتها كل أيام الألم التي عاشتها بفقدان أمها... وها هي سارة بدورها تبكي الفراق فهل ستجد لها منديلا أكبر

كي تجفف به دموع صديقتها؟
 هل ستستطيع أن تخفف عنها كما فعلت هي سابقا...
 راودتها الكثير من الأفكار لكنها استسلمت للبكاء...
 الإنسان برغم قوته وجبروته إلا أنه يبقى ضعيفا في الكثير من
 الأحيان يستسلم للأحزان ولا ينقذه منها سوى النسيان ...
 وبالرغم من أن الموت قضاء وقدر... لا مفر ولا هروب منه إلا
 أن والده سارة أصيبت باكتئاب حاد إثر وفاة زوجها ما جعلها
 تمتنع عن الكلام...
 أصيبت بانهايار عصبي أفقدها كل مناطق الحروف...
 ولم تعد لها القدرة على التفوه بأي كلمة وبالرغم من حرص
 نادر على علاجها بمصحة خاصة إلا أنها أصبحت بكماء تحولت
 حياة سارة من بهجة وسرور إلى حزن ومعاناة فقدت والدها
 وأصيبت أمها بالبكم...
 لكن هنالك دائما شعاع نور صغير يظهر فجأة وسط الظلام
 كي ينير الدرب للتائهين...
 كان هناك طيبيا نفسي...
 أكد لسارة ونادر أنها ستشفى وهذه ليست سوى آثار الصدمة
 التي تعرضت لها...

هذا ما جعل سارة ترتاح قليلا وتطمئن...
وقفت عائدة مع صديقتها في محنتها...
ساعدتها وساندها...

خفت عنها عبئ الهموم في محنتها ببعض الكلمات الطيبة
والحنونة.

فكانت لها نعم الأخت ونعم الصديقة...

كانت تزورها يوميا تتفقد أحوالها عليها تجد في حضورها تعويضا
بسيطا لما سببته لها أمها من تعاسة شديدة وظل ياسين من جهته
يحث عائدة على ملازمة صديقتها في السراء والضراء وعدم التخلي
عنها ومواساتها بالعطف والحنان كم أنت مباحثة أيتها الحياة...
كيف سنفهمك؟

وهل لنا أن نرسمك في لوحة تسر الناظرين إليها؟

لابد أنك تشبهين الموناليزا مبتسمة وأنت تبكين أم أنك باكية
وأنت تضحكين...

مشت سارة وسط طريق مليء بالورود ظنا منها أنه يؤدي إلى
البستان ولكنها وصلت إلى غابة مليئة بالحيوانات المفترسة كان
الألم أكبرها وأقواها...

تاثرت دموعها أرضا على والدها انحنى لتجمعها فانكسر ظهرها

بمرض أمها فوجدت نفسها تغرق ثانية في بركة من العبرات...
 من كان يدري أن عائدة الفتاة العادية البسيطة تجد والدا يمسح
 دمعها ويواسي حزنها ويكون بمثابة أم ثانية، ومن يستطيع أن
 يدرك أن سارة التي عاشت طوال حياتها في قصر فخم وسط
 والدين كريمين، وعائلة هائلة تعيش مرارة الموت ولا تجد أما
 تمسح دمعها؟

كان بينها وبين الجنون خيط رفيع استطاعت عائدة أن تصنع
 منه جدارا فضيع بسماحتها وطيبتها وصمودها معها...
 أن يفقد الإنسان أحد والديه ولا يجد من يقف معه ويسانده
 ويؤازره ويكون المنديل الذي يجفف به دمه واللحن الجميل الذي
 يتحف به سمعه فهذا يعني أنه فقد الكثير... هذا يعني أنه
 يملك بغمه الكثير من الكلمات... لكنه لا يستطيع التعبير...

ما فائدة الألسن دون كلمات؟

وما فائدة العيون دون نظرات؟

وما فائدة آذاننا إذ لم يكن حولنا أصوات؟

كم هو مؤلم على الإنسان أن يشعر أنه لوحده وهو وسط
 حشد غفير...؟

سياسية محنكة أنت أيتها الحياة أم أنك رئيسة حزب ترغب

حقا في التغيير؟

تزايدت آهات سارة وأثقلت الهموم قلبها البريء الذي لم تعرف الحسرة والأسى طريقا إليه من ذي قبل ولم يعد لعائدة هم سوى حزنها وأسفها على صديقتها حتى أنها كانت تهاتفها أحيانا. لتحكي لها نكتا عليها بذلك تطمئن على سلامة ضحكتها...

هاته الضحكة التي أصبحت مريضة ولم تجد لها علاجا أو طبيبا أو صوتا يشبه بعض الشيء صوتها الأصلي، كانت سارة تتجول في أنحاء المنزل أحيانا محاولة أن تتخيل والدها يجول بين غرفه يتكلم ويضحك ويلعب أحيانا مع نادر...
تمنت لو تسمع صوت أمها الغائب...

ذاك الصوت الدافئ الذي تزينت به جدران منزلها ورقصت من أجله نبضات قلبها...

تمنت لو أن الفرحة تجد إليها طريقا كالذي سارت عليه سابقا ولكنها الأقدار ظالمة بقدر ما هي منصفة تشبهنا نحن البشر في كل الثنائيات التي نعيشها... خيرنا وشرنا، حبنا وكرهنا، عدلنا وظلمنا وصبرنا وأحيانا تمردنا وضعفنا وقوتنا.

أشياء بداخلنا أكبر من أن تكون صادقة وأخرى أصغر ما نقوله عنها أنها كاذبة...

تقسو الحياة أحيانا فتبكيها وتبتسم أحيانا أخرى...

فتنسينا ما يؤلمنا وحتى ما كان يبكيها ...

هي دائما تطل كضيف زائر لم يعلن من قبل موعد مجيئه كهدية

عيد لربما تعجبنا أو أنها تزعجنا وتؤذينا. كم أنت غريبة أيتها الحياة؟

وكم هي متعبة كل الطرق المؤدية إليك...

والجسور التي تربط بين ابتساماتك وآهاتك...

تزوجت آية لكنها لم تكن تجهل أبدا ما يحدث لصديقتها بل

أنها كانت دائما تتصل بعائدة تطمئن على صحة والدها وكذلك

على سارة، التي ذرفت كل دموعها بعد وفاة والدها حملت

نفسها ذات يوم، قررت أن تذهب لزيارتها علها تواسي جرحها

الذي لم يلتئم...

اتجهت وزوجها إلى منزل سارة قرعت الباب مرتين فلم يفتح

استدارت كي تغادر ضنا منها أن لا أحد بالمنزل...

فإذا به يفتح لقد كان نادر من فتحه وعلامات البؤس والحزن

بادية على عيونه...

هو رجل لكن الموت لا يعترف بالرجولة ولا يعترف بالتحدي

والمواجهة...

هو ملك تنحني له كل المشاعر وتبكي لسلطته كل العيون نظرت

إليه قائلة: كيف حالك يا نادر...؟
 هل سارة هنا؟ فرد عليها بتعب شديد أنا بخير...
 سارة هنا تفضلي بالدخول...
 لم يكد يغلق الباب حتى أثار انتباهه زوج آية الذي كان يقف
 أمام سيارته الفخمة تأمله جيدا...
 اقترب منه أكثر ليتأكد من شكوكه دنا منه...
 سلم عليه وجلس في حديقة المنزل يتبادلان أطراف الحديث
 رغم كبرك أيتها الحياة إلا أن الأماكن فيك تصبح صغيرة جدا
 حين تحكم علينا الأقدار باللقاء...
 دخلت آية فإذا بفرحتها كانت كبيرة لتواجد عائدة هنالك...
 جلست الصديقات الثلاث في بهو المنزل وعلامات السرور بادية
 على وجوههن...
 لقد مر زمن طويل على آخر لقاء لهن...
 ابتسمت سارة رغم الألم...
 لربما كانت أقوى ولربما كانت ترتدي قناعا لا لشيء وإنما
 بداخلها الكثير من الحب والاحترام لعائدة التي كانت بمثابة
 الأخت وآية التي كانت نعم الصديقة...
 مرت ساعتان من الزمن فتهيات آية وعائدة للمغادرة مودعتان

سارة على أمل لقاء آخر.
 دخلت سارة غرفتها كي تستريح...
 إذ بنادر يدخل وراءها...
 سألته هل من خطب؟
 فكان جوابه في غاية الغرابة لقد كنت في الحديقة أتحدث إلى
 زوج آية صديقتك وهل تعرفه؟
 نعم أنه صديق قديم.
 إنها صدفة جميلة، هل تعرف عنه الكثير؟
 نعم هو رجل شديد الثراء، هوايته حب السيطرة والامتلاك
 ماذا تقصد يا نادر؟
 أقصد أنه صعب الطبع لقد تعامل معه والدنا في مرة من المرات
 وقرر أن لا يعيد التعامل معه أبدا أتمنى أن تكون آية سعيدة معه...
 فتاة عاشت في فقر مدقع كيف لها أن تدرك علم الثراء...
 وفي أي جامعة ستدرس عنه...
 هذا البحر الكبير الذي تتنوع أسماكه بألوانها وأحجامها...
 هل ستأقلم مع سمكة القرش وهي التي سبحت طوال حياتها
 مع السمك الصغير؟
 رجعت عائدة إلى المنزل وفرحتها بأية تمتزج بحزنها وألمها على

سارة...

دخلت المنزل إذ بالهاتف يرن...

إنها سارة...

لابد أن هناك أمر مستعجل لا يتطلب التأجيل نعم سارة:

عائدة لدي أخبار جديدة...

أخبار وصلتك بعد خروجنا أنا وآية نعم سأمر غدا إليك بالمكتب...

لقد كان صوتها مرتبكا وعلامات الخوف واضحة بين أحرفها وجملها

لم تكن توحى بشيء سوى الغرابة لقد كانت نجية بالمنزل

تأهب للعودة إلى منزلها غير أنها أخبرت عائدة شيئا استلطفته

وسرت لأجله أحتاجك مساء يا عائدة بالطبع يا عمتي ولكن لماذا؟

سنذهب أنا وأنت لنخطب لابني ماجد..

تفاءلت عائدة وتمنت لو أن الخبر الذي ستقوله سارة يكون

سارا بدوره...

مرت ساعات الليل تجري كأنما ليل عائدة كان يدري بسواد المعلومة

التي كتبتها الأقدار على صفحات الجريدة التي تتداول أخبار سارة...

دخلت سارة مكتب عائدة كأنها شخص آخر...

استقبلتها بوجه بشوش مبتسم لكن ابتسامة كانت تخاف أن ترتسم

فالحزن الذي كان يرافق سارة كان أقوى وأعمق وأطول ظلا...

جلست وأوراق بين يديها ودموع في عينيها وكلمات مختبئة وراء شفيتها...

لم تقل شيئاً كان السكوت طاغياً وضعت الأوراق فوق المكتب فالتقطتهم يدا عائدة بدأت تقرأ بصوت عالي لكنها أنهت قراءتها بشيء يشبه الصوت اسمه الصمت...

نظرت إلى سارة قائلة:

من أذاك بهذه الأوراق؟

خالي فريد إنه الأخ الأصغر لأمي...

وما الذي يجعله يكشف عن هذه الوثائق في مثل هذه الأوضاع؟ هو يعتقد أن هذا لربما سيساعد أمي على الشفاء...

هل هذه شهادة ميلاد نادر؟

لقد أحضرتها كي تقارني بين تاريخ فقدانها للذاكرة وتاريخ ولادته

إن التواريخ متقاربة جدا هذا غريب!

ألم تقولي لي يا سارة أن لها ابنة متوفية؟

نعم!

إذن كيف استطاعت أن تتذكر وفاة ابنتها وهي مريضة ومتى شفيت؟

لقد مات والدي ولم يذكر إطلاقاً أمراً كهذا في حياته وهل

أخبرتكم أمك بفقدانها للذاكرة من قبل؟

أبدا لولا خالي فريد وهذه الوثائق لكننت جاهلة بالذي حدث لها إلى يومنا هذا أنا متعبة جدا يا عائدة...
لم أكن أعلم كم هي صعبة هذه الحياة وطويل جدا الطريق الموصل إلى الحقائق فيها...
كنت أظن أن الغريب غريب الوطن لكنني غريبة جدا، ولدي أهل وبيت ووطن...
دمعت عينا سارة وبكت من أجلها عائدة...
اشتغلت نار الحزن والغضب بقلب سارة التي كانت تظن أنها تعرف الكثير، لكنها اكتشفت أن لكل طائرة تتحطم صندوقا أسودا إلا هي فصندوقها الأسود كان ضائعا وأسودا أكثر مما ينبغي...
وما زاد غضبها وقهرها هو خالها الوحيد الذي جاء يروي قصة في غير زمانها ولا مكانها...
غرقت سارة في بحر من التساؤلات المبهمة وغاصت إلى الأعماق دون أن تجد حلولا لها.
هل كامل هو حقا والدها؟
وهل نادر هو أخوها من أمها؟
فاتتهت بالتساؤل هل أمها البكماء هي بالفعل أمها؟
امرأة فقدت ذاكرتها لأربع سنوات ولدت سارة خلالها كيف لها

أن تسرد الماضي أو تتذكره؟

لم تجد سارة حلا آخر لمعرفة الحقيقة سوى الاتصال مجددا
بخالها فريد...

اتصلت به على الساعة الثامنة ليلا، كان لتوه قد انتهى من العشاء...
مساء الخير خالي مساء الخير سارة...

كيف حالك؟ هل أمك بخير؟

نعم الحمد لله وكيف صحتك؟

بخير يا عزيزتي.

أردت أن استفسر عن بعض الأمور التي تخص أمي فهلا ساعدتني؟
بالطبع يا سارة تفضلي...

سؤال يعبث بأعصابي وتفكيري ولم أجد له جوابا...؟

ماذا يا سارة...؟!

هل نادر حقا أخي من أمي وهل أنا حقا ابنة كامل؟

أذكر جيدا أن أختي تزوجت برجل اسمه المهدي وأنجبت معه
نادر لكنه توفي في حادث سيارة لكن أمي أخبرتني أنه طلقها...

هو زوجها الثاني الذي طلقها والد زهرة التي ماتت لم تقل لي
أبدا أنها تزوجت مرتين قبل زواجها بأبي هذا غريب...آه منك

أيتها الحياة...

مباغطة حتى الجنون والحقائق فيك مختبئة بالقلوب وخلف العيون
عندما نكتشف غدرك نصاب بالصدمة ولكن الأكثر ألماً ووجعاً
أن من يخدعنا ويكذب علينا هو أقرب الأشخاص وأحبهم إلينا.
لماذا خبأت والدة سارة كل هذه التواريخ والتفاصيل في حياتها؟
ماذا كان هدفها؟

هل حقاً فقدانها للذاكرة جعلها تنسى كل شيء حتى زواجها الثاني؟
عادت عائدة إلى المنزل والدهشة تملأ عقلها...
تحيطه ممن كل جانب كأنه بالون منفوخ لا شيء يملأه سوى الهواء...
أسندت رأسها إلى الوسادة واضعة يداها تحت رأسها كانت تفكر
وتفكر عليها تجد وسط كومة القش...
هاته الإبرة الضائعة...

خطر على بالها أن لو والدها هو الذي أخفى كل هذه الحقائق
كيف كانت ستتصرف هل كانت لتسامحه؟
وتغفر له؟ أم أنها كانت ستغضب غضباً شديداً؟
نهضت مسرعة إليه عليها تجده ما يساعدها، على حل مشكلة
سارة فوجدته نائماً على كرسيه، بالمكتبة حاولت ايقاضه
بشتى الطرق لكنه لم يستفق... هاتفت عمته نجية فقدمت
مسرعة إلى المنزل حاولت هي الأخرى ايقاضه دون جدوى...

طلبت سيارة الإسعاف ونقلته إلى المشفى...
لقد كان في وضع حرج ما جعل الطبيب يعترف لعائدة بحقيقة
مرضه...

انهارت عائدة بالبكاء وأحست لوهلة أن الليل يسكن بأعماقها
متعمدا قتلها وتعذيبها وإرهاقها لطالما كانت تشك أنه يخفي
عنها شيئاً ما يخص مرضه ولطالما كان إحساسها صادقاً... بداخل
كل واحد فينا شعور عميق صادق يأبى أن يكون كاذباً أو منافقاً
يدلنا على الحقائق من حولنا، لربما نعترف به أو نتجاهله لكنه
أصدق بكثير مما نتخيل هو ذلك الضوء الخافت الذي يقهر
الظلام الحالك ويرينا كل الأشياء من حولنا على شكلها الطبيعي
والحقيقي كيف ننكر قوة وجسارة الإدراك والبصيرة التي تتمتع
بها نحن البشر؟

مشاعرنا أكبر بكثير من أن نكتبها على السطور...
وأحاسيسنا بداخلنا أوسع من المحيطات والبحور...
كيف استطاع ياسين أن يكذب على ابنته عائدة...
هاته الفتاة التي أبدا لا يخونها الشعور...

طمئن الطبيب عائدة وأخبرها أن والدها سيتعافى بإنشاء الله
بعد خضوعه لجلسات العلاج فهدأ هذا الكلام من روعها

بعض الشيء...

كما وقفت عمتها نجيبة إلى جانبها تمسح دمعها وتضمّد جرحها
تواسيها وتخفف حزنها...

عادت عائدة وعمتها إلى المنزل...

لقد كان مظهره موحشا كئيبا من دون ياسين...

كأن بجدرانه عيوننا باكية...

خطت عائدة خطوات متثاقلة إلى غرفته همت بالدخول وأثار
العبرات على خدها كانت تأبى أن تزول تأملتها كما لو أنها
تدخلها أول مرة، لقد كان بأعماقها رفض داخلي لهذا الفراغ
الذي خلفه والدها وراءه خطر ببالها أن ترتدي القلادة التي
تركتها لها أمها وضعتها في رقبتها...

لم يعد شكل القلب فيها جميلا كما كان سابقا ولم يكن شكله
مثيرا وجذابا كما عهدته عندما نحمل في صدورنا قلوبا محطمة
ومريضة لا ترى بعيوننا سوى أشياء بشعة مهما كانت درجة
حمالها لم يمر من الوقت سوى القليل إذ بالهاتف يرن إنها سارة:

مرحبا عائدة

أهلا يا سارة

لن تصدقي ماذا سأقول

ماذا؟

والد نادر أخي توفي في حادث سيارة...

هو لم يطلق أمي وهل نادر يعلم بهذا؟

أنا لم أخبره بعد والأغرب من هذا أن أمي تزوجت بعده بوالد أختي زهرة التي توفيت وطلقها من أين أتيت بكل هذه الأخبار يا سارة؟ إنه خالي فريد ساجن يا عائدة لإفراطي من التفكير لماذا كذبت أمي عليّ ولماذا أخبرتني أن والد نادر هو من طلقها وكيف استطاعت أن تخفي علي زواجها من والد زهرة، ولماذا حكمت علي الأقدار أن أعرف كل هذا بعدما توفي أبي وأصبحت أمي بكما؟ سكتت عائدة بضع لحظات...

كانت أحاسيسها منهكة وأعصابها متوترة ونبضات قلبها ترتعد خلف قفصها الصدري استجمعت أنفاسها وقالت:

والدي مصاب بالسرطان يا سارة ومن أخبرك بهذا يا عائدة؟

لقد أخذناه أنا وعمتي نجية إلى المشفى فأخبرني الطبيب بحقيقة مرضه الذي كان يخفيه عني...

تفاعلي يا عائدة، سيشفى بإذن الله...

سيموت وسيتركني يتيمة الأبوين يا سارة وضعت عائدة سماعة الهاتف فيدها لم تعد تقدر على حملها جلست أرضاً وبكت كطفل

صغير سرقت منه لعبته المفضلة، لكنها لم تكن تبكي لعبتها المفضلة لقد كانت تبكي رجلا استطاع بحنانه أن يقتل كل مشاعر اليتيم التي كانت تجتاحها هذا الرجل الذي تحمل ألم المرض وذُلَّهُ من أجل أن تعيش ابنته هائلة وسعيدة هذا المرض الذي يدعى السرطان رغم أن سرطان البحر أجمل وأنقى منه بكثير... يعبث بالمصاب به حتى النهاية يقتله آلاف المرات قبل أن يموت... هو ملاكم بارع وخبيث لا يصعد الحلبة إلا ويخرج منها منتصرا لأنه طالما عبد طريقا إلى الموت بلكلماته القوية والقاسية التي لا مفر منها ولا منفذ هذا المرض الذي يقتل بداخلنا كل المشاعر سوى الإحساس بالألم واليأس والقنوط هو نوع من أنواع السلطة يمارس كل سياساته الطاغية علينا دون أن يكون لنا حق الرفض أو القبول يحاربنا وجها لوجه فهو لا يؤمن بسياسة الحرب بالوكالة يحدث بأعماقنا انقلابا ويغير وجهات نظرنا حسب ما يحب هو ويشتهي... يكبلنا بقيود لا ليسجننا بل ليسجن نفسه داخل أعضائنا وعروقنا بدمنا وحتى بعقولنا.

كيف للإنسان أن يعيش ويحيا وقنبلة الموت بداخله؟
حاولت عائدة أن تتعود على غياب والدها ولكن التعود على

الألم أمر صعب ومستحيل...

كانت تزوره في المشفى لمدة أسبوع استحالت فيها حياتها إلى مسلسل حزين لا تتحدث حلقاته سوى عن المرض والأين لكنها كانت تملك من الإرادة والشجاعة ما يكفي لمقاومة وجع السنين هذا ما ورثته عن والدها الذي لم يعد بعقله شيء يفكر فيه سواها، تحسنت حالته بعض الشيء فسمح له الطبيب المختص بمغادرة المستشفى شرط أن يكمل جلسات العلاج مرتين في الأسبوع دمعت عينا عائدة لهذا الخبر السعيد وأحست كأن أشجار الخريف انهزمت أمام أزهار الربيع كم أنت مباغثة أيتها الحياة عاد ياسين إلى منزله كأنه أمير يعود إلى مملكته، استلقى على سريريه بمساعدة عائدة التي رقص قلبها من شدة الفرح بعودته لها...

ها هو الآن أمام عينيها حي يرزق بعدما تجرع من كأس الموت لعدة أيام دون أن توافيه المنية دخلت المطبخ لتحضر له الأكل إذ بها تسمع طرقاً على الباب...

إنها عمته نجبية...

دخلت وهي تحمل بين يديها قفة كبيرة مملوءة بما لذ وطاب...
أسرعت نجبية إلى غرفته كي تتفقدته وأثار الدموع لا زالت محفورة

على خديها...

فوجدته نائماً...

شعرت بحاجته الماسة إلى غفوة صغيرة فتركته نائماً دخلت
المطبخ فقالت لها عائدة:

ما كل هذا الأكل يا عمتي؟ سنأكل نحن وكل أفراد الحي لمدة أسبوع
ابتسمت نجبية وقالت:

هذا من فرحتي بخروج ياسين من المشفى لم تكمل كلامها
حتى وجدته واقفا وراءها ومظاهر التعب والإرهاق واضحة على
وجهه وضوح الشمس ابتسم ابتسامة تنم عن حبه واشتياقه
لابنته عائدة وأخته نجبية قائلاً:

كيف حالك يا نجبية؟

أنا بخير...

اجلس يا ياسين...

استرح لا عليك يا نجبية...

أنا أفضل حالا دخلت غرفتك وجدتك نائماً فلم أرغب في ايقاظك...
سأسخن لك شوربة الدجاج يا أخي نطقت عائدة قائلة:

لماذا أتيت يا أبي؟...

عد إلى غرفتك لتستريح لقد مللت من السرير يا عائدة هذا السرير

الذي حاول ياسين لعدة أشهر الهروب منه لم يكن له منه مفر...
لقد كان قدرا محتوما ومباغتاً...

ومن حسن حظه أنه كان مؤقتاً هذا الرجل الجزائري الشهم
الذي ورث الإرادة والعزيمة عن أجداده لا ينهزم بسهولة أمام
المرض ولا يستسلم بسرعة للألم...

هو يقاوم حتى النهاية لا ليعيش هو ولكن لتعيش عائدة وتحيا
بحياته لا يخيفه الموت بقدر ما تؤرقه الحياة ولا ينحني أمام
المرض في أول لقاء به...

هو لا يحمل في قاموس حياته مصطلحات الفرار والهروب...
نظرت إليه عائدة بنظرة ملأها الحب والحنان قررت أن تتركه
على راحته سواء شاء الجلوس أو الوقوف لكنه عاد إلى السرير
فتبعته بكوب ماء وحبّة دواء جلست بجانبه مبتسمة وقالت له:
حمداً لله على عودتك إلينا سالما يا والدي الحمد لله يا عائدة...
هل اشتقت إلي؟

بالطبع يا والدي، لقد كان المنزل مظلماً بدونك كان كوردة لا
لون ولا عطر لها ابتسم لهذا الكلام الجميل والمنمق ابتسامة
عريضة...

دمعت عيناه لكنه كان يأبى أن يبكي في حضور عائدة دخلت

نجيبة وفي يديها طبقين لذيين وعصير البرتقال وقطعة صغيرة
من خبز الشعير الذي يحبه ياسين...
إذ بالباب يطرق...

همت عائدة لفتحه فوجدت صديقتها العزيزة صديقة عمرها
سارة تحمل هي الأخرى باقة كبيرة من الورد و علبة من الحلوى
ابتسمت قائلة:

تفضلي يا سارة، كيف حالك؟
بخير...

لقد جئت لأعود عمي ياسين هل تحسنت حالته؟
نعم إنه أفضل حالا، أدخلني إنه في غرفته اتجهت سارة وعائدة إلى
غرفة ياسين ففرح كثيرا برؤية سارة طلب منها الجلوس فجلست
ابتسمت في وجهه قائلة:

أنت تبدو أحسن حالا يا عمي ياسين الحمد لله لقد مررت
بأزمة صحية، لكنني أفضل مما كنت عليه وأنت كيف حالك
و حال والدتك؟

هل شفيت؟

أنا بخير وأمي لا زالت لا تقدر على الكلام ستشفى بإذن الله...
تفاني خيرا، طأطأت سارة رأسها وأحنت ظهرها فانهمرت الدموع

من عينيها وانسكبت فهمت بالخروج من الغرفة مسرعة كي لا يراها ياسين فيحسبها ترثي لحاله تبعثها عائدة فمسحت دمعها بمنديل كان بحوزتها قائلة:

ما بك يا سارة؟ ما الذي يبكيك يا عزيزتي؟ لقد تذكرت والدي وهو على سرير المرض...

لم أعود على نسيانه، لا يزال قلبي ينبض قائلا كلمة أبي ولا يزال ألم فراقه يسري ويجري بعروقي...

أين الهرب من قدر الفراق وألم الرحيل كيف لحمامة أن تغني بصوت آخر غير الهديل؟

بكت عائدة وأحست كأن الدنيا تحاصرها بجيوش قوية وجبارة جيوش الحزن والمرض والوجع تواجهها بسلاح خطير وهي فارغة اليدين ... لا شيء لديها سوى الدموع سوى الاستسلام والخضوع نعم إنها الحقيقة...

أغلب حروينا ضد الحياة نبدأها بدموعنا...

هاته القطرات الغالية التي تنسكب من عيوننا في انكسار وفي انحدار دون أن تتمرد وتغير المسار...

مصيرها النزول ولولا هبوطها المستمر لما ارتحنا نفسيا وشعرنا بتحسن كبير.

استجمعت عائدة نفسها وقالت:

من خلق بعيوننا الدموع خلق كذلك بأنفاسنا الصبر ومن يستطيع أن يطفئ الشموع لا يستطيع أن يحبس أشعة الفجر أو يكتب رواية كاملة عن الدهر نحن البشر رغم قوتنا، إلا أننا نبقى ضعفاء وأضعف بكثير مما تتصور أمام خالق الكون الله سبحانه وتعالى هي الأقدار أحيانا تبكيننا وأحيانا أخرى تجرحنا وتؤذينا وفي الكثير من الأحيان تشفيننا غادرت سارة مخلفة وراءها عائدة تجول في مزارع الماضي لتقطف ثمار الحزن من أشجار الذاكرة إلا أنها استفاقت من هاته الغيبوبة على صوت والدها دخلت غرفته قائلة:

ماذا يا أبي هل ناديتني؟

نعم يا عائدة، ما الذي ألم بسارة وجعلها تخرج من غرفتي مسرعة؟ لقد تذكرت والدها عندما كان مريضا لا أدري يا عائدة لماذا أحس وكأن سارة هي ابنتي كلما رأيتهما...

أنت رجل عطوف وحساس يا أبي وحي لها هو الذي خلق بداخلك هذا الشعور خرجت سارة من منزل عائدة باكية تتعثر بدموعها وما كادت تصل إلى سيارتها حتى تبللت بالأمطار المنهمرة... لقد كان الجو غائما وحزينا كما لو أن السماء بكت لمشاعرها المنكسرة همت بالعودة إلى منزلها في ارتباك شديد كانت

يداها ترتجفان لشدة البرد وبوجهها سحابتين غائمتين تمطران من العبرات ما يكفي لإحداث فيضان غير مرتقب...
لقد كانت شاردة تهذي وتكلم نفسها لشدة ضعفها وألمها لقهرها، ولحزنها على والدها ولمعرفتها بالحقائق الغامضة التي أخفتها والدتها...

لم تعد تقدر على السياقة من التعب تصبّب جبينها عرقا ولم تعد تفرق بين الرصيف والطريق لم تكن تدرك أن الماء من الممكن أن يهزم أمام الحريق...

أبطأت من السرعة لكن يد القدر كانت أسرع منها حين ارتطمت سيارتها بشجرة كبيرة، محدثة جلبة وهلعا كبيرا وسط الشارع اتصل أحدهم بالإسعاف فقدموا مسرعين لانتشالها من السيارة كان وجهها ملطخا بالدماء...

حملوها على جناح السرعة إلى المشفى كان نادر جالسا بيهو المنزل يطالع الجريدة بقرب المدفأة حين رن الهاتف من المشفى كي تعلم عائلة سارة بالحادث الذي تعرضت له صعق لهذا الخبر لكنه تمالك نفسه وقرر إخفاءه على أمه رحمة ورأفة بها حمل نفسه واتجه إلى المشفى...

سأل عن رقم غرفتها في قاعة في قاعة الاستقبال فتوجه مسرعا

إليها وقلبه يدق بشدة كأنما كان سيخرج من صدره...
 دخل فوجد الطبيب بجانبها قد انتهى لتوه من حقنها بإبرة منومة...
 سأله وعلامات الخوف بادية على وجهه:
 كيف حالها؟

إنها أفضل حالا لقد أجرينا لها صورة إشعاعية على الدماغ
 والحمد لله أنها لم تتعرض لإصابة على مستوى المخ خرج
 نادر وحاول أن يتحدث معها لكن الطبيب منعه ونصحه بتركها
 تستريح عاد إلى المنزل فوجد أمه في حيرة شديدة على تأخر
 سارة فأخبرها بما جرى لها وطمأنها قائلاً أنها بخير لكنها أجهشت
 بالبكاء، ولم يهدأ لها بال حتى أخذها لتراها بنفسها وتطمئن عليها
 هكذا هي الأم، خلقت من الحب والحنان ولا شيء في الدنيا
 يضاهي حب الأم في شدته هو أقوى من أن يكون حبا عاديا
 كذلك هي مشاعر الإنسان يصنعها العذاب وتصلقها الآهات
 وتكمل مشوارها متعثرة بالأحزان وبالأيام وبالصددمات...
 آه منك ، آه منك أيتها الحياة دخلت عائدة إلى غرفتها كي تنام...
 كانت الساعة الحادية عشر ...

فإذا بها تسمع صوت الهاتف يرن استيقظت مسرعة وقبل أن تصل
 إليه شعرت كأنما بداخل عيونها دمعا يتأهب لمغادرة جفونها...

شعرت برعشة تسري على كامل أجزاء جسدها...

لم تعرف ما الذي يحصل لها...

كأنما كان هنالك شيء يعترض طريقها ويحول بينها وبين الوصول إلى الهاتف مشت بخطوات متناقلة... متعبة... ومنهكة وبداخلها حدس قوي يخبرها بأن أمطار الحزن لا زالت متواصلة ومطبات الحياة لا تزال كثيرة...

حملت سماعه الهاتف إذ به نادر هو المتحدث تعجبت لسماع صوته وتأكدت أن إحساسها أبدا لا يخونها بكت قبل أن يكمل نادر جملته... انكمشت كما ينكمش القلب في حضرة الشعور جثت على ركبتيها كطفل صغير...

لم تقل شيئا كان الصمت سيّدا ولم تجد كلماتها في حضرته مقعدا لطالما تعودت الوقوف بعد السقوط...

لطالما ابتسمت كي تحارب اليأس والألم وتلغي بداخلها حرب الدموع هاته الحرب التي تأبى وترفض أن تنتهي هي لا تعترف بالفشل...

لا يخذعها طول الأمل ضميرها مبتور ومنزوع يعاني من الشلل كيف ستوقفها وقائد الحرب بداخلها...

لا تتوقف نبضاته إلا بأجل نعم...

هي فرحة تحتاج إلى الكثير من الفرح...
إلى مكان أكثر أماناً من ثغر عائدة هاته الفتاة الطيبة التي
طعنتها الحياة برمّاح الألم بسيوف الحزن وسهام السقم
ها هي اليوم تموت آلاف المرات لسماعها بحادث سارة الذي
كان سيحرمها منها إلى الأبد دون أن تحمل حقيبة سفر ودون أن
يكون لها موعد مع الرحيل جلست بالقرب من الهاتف تبكي
كطفل صغير، وأذرفت من الدمع الكثير ودون أن تشعر وجدت
نفسها ترتدي معطفها وتنتعل حذاءها وتحمل مظلتها...
لم تفكر بشيء سوى الذهاب...

إلى أين؟ وكيف...؟

والوقت يقارب الثانية عشر ليلاً ما أعظمك أيها الحب حين
تكون معلباً بنبضات الوفاء وما أقساك وأنت قدر محتوم كتبته
السماء على صفحاتنا بأقلام الحزن والبكاء همت بالذهاب إلا
أنها سمعت أحداً يناديها قائلاً:

عائدة... عائدة... عودي لا لم تكن تهذي هي الأخرى...

لقد كان هذا صوت والدها ياسين الذي استفاق من النوم
خالجه شعور أن هنالك خطب ما يلّم بابنته توقفت للحظة
وتوجهت لغرفته مشته الأفكار نظر إليها نظرة حيرة واستغرب

قائلا لماذا ارتديت ملابسك وهممت بالخروج يا عائدة في وقت كهذا والغيث لا يزال ينهمر بشدة؟ ما الذي ألم بك؟
سارة يا أبي...
ما بها؟

لقد وقع لها حادث سيارة وهي الآن أفضل حالا كما يقول أخوها نادر، لكنني غير مطمئنة...
أريد أن أراها أنا لا أريدها أن تموت قبل أن أقول لها أنني أحببتها كما لو أنها أختي التي حرمت منها نهض ياسين من فراشه متثاقلا اقترب من عائدة عانقها قائلا:

تريثي يا عائدة، لا تجزعي من قضاء الله وقدره نحن البشر نضعف في المصائب... لكن المؤمن القوي يتمسك بالصبر ويتحلى بالإرادة ويستأنس بالدعاء والتذرع لله لم يكمل ياسين كلامه حتى أحس بالتعب فاستند إلى السرير... كان أشبه بورقة خريفية صفراء تهوي لا لتصنع الخريف وإنما لتعبد طريقا للشقاء والبكاء وللزيف هرعت عائدة مسرعة إلى المطبخ فتحت علبة الدواء وأحضرت كوب الماء، شعرت بتأنيب الضمير لأنها كانت السبب في إيقاظه وإتعبه...

تذكرت يوم نست ملء أنبوية الماء لعصفورها فمات دخلت

إلى غرفته قائلة:

اشرب دوائك يا أبي واخلد إلى النوم سأنتظر إلى الغد وأذهب لزيارتها سأتمسك بالأمل وسأدعو لها بالنجاة وبالشفاء.
ابتسم ياسين ابتسامة صغيرة كأنما أراد بها أن يكسر صمت ملامحه المرهقة كما يكسر الرعد صمت السماء وقال:
يا لك من فتاة خلوقة وبارة يا عائدة وفقك الله وسدد خطاك انتعشت عائدة لهذا الكلام الجميل كما ينتعش العطشان بقطرة الماء شعرت لوهلة كما لو أن قلبها توقف وعاد ليدق من جديد.
خلعت معطفها وحذاءها ولبست ملابس النوم وأوت إلى سريرها مرت ساعات الليل تجري بسرعة القطار إلا أنها توقفت عند بزوغ الفجر في محطة كانت الشمس قد فتحت فيها باب النهار وكسرت كل قواعد الملل ومعارك الانتظار باسطة أشعتها المنيرة على نافذة عائدة التي استفاقت وأثار الدموع لا زالت قابعة على خديها الشاحبتين كانت الساعة الثامنة صباحا...

ألقت نظرة خاطفة على والدها...

فلم تجده في غرفته لقد كان في المطبخ يشرب القهوة شعرت بغبطة كبيرة وهي تلاحظ أنه أحسن حالا...

صباح الخير والدي صباح الخير يا ابنتي هل استفتقت باكرا؟

نعم سأذهب إلى المكتب لدي بعض القضايا العالقة أنجزها
ومن ثم سأذهب لزيارة سارة في منتصف النهار حسنا يا عائدة...
لا تتسرعي وتذهبي قبلا فلربما لن يسمحو لك بالدخول قبل
موعد الزيارة أعلم ذلك...

سأهاتفك يا أبي لأطمئن عليك لا تغادر المنزل من فضلك لا
زلت مريضا...
أنا أحسن حالا...
سأذهب إلى العمل...

لن يزيدني الجلوس بالمنزل سوى الضجر والملل حسنا يا والدي
لن أمنعك من شيء ترى فيه سعادتك بالرغم من أن الطبيب
أكد لعائدة أن السرطان الذي يعاني منه والدها في أول مراحلها
ومن الممكن جدا القضاء عليه إلا أن هذا لم يحطم جدار
الشك بتفكيرها لم بمنحها الثقة الكاملة لتعطي للحياة فرصة
كي تثبت لها أنها لن تبقى كما عهدتها مباغته حتى الجنون...
ومخادعة فوق الظنون...

لقد تعلمت في مدرسة دموعها أن تعيش على حذر... أن لا تبني
سعادتها على ابتسامة مؤقتة كي لا تجلس على طاولة الندم
لساعات طويلة كيف ستنسى يتمها...؟ وتسكبه من دلو الذاكرة

كيف لمظلة أن توقف حربها مع سماء مطيرة..؟
اتجهت إلى مكتبها وباشرت أعمالها الناقصة ملفا تلو الآخر مرت
ساعتين من الوقت فإذا بها تتذكر أنها وعدت والدها بمهاافته، رن
الهاتف طويلا لكنه لم يرد فتأكدت أنه خرج أكملت بسرعة قصوى
كل القضايا العالقة واتجهت مباشرة إلى المشفى دخلت مسرعة
كأنما الدنيا تطاردها وتحاصرها بجيوش الخوف واللّهفة والانتظار
طلبت رقم غرفتها فأخبروها في الاستقبال أنها الغرفة رقم
ثمانية عشر في الطابق الثاني على اليسار، بالرغم من قصر
المسافة لكنها كانت بعيون عائدة طويلة جدا...
لقد كان المشفى يعج بالضجيج وبالأنين لكنها سارت إلى غرفة
سارة مثقلة مكبلة بقيود الحنين...
لم تلتفت لا يمينا ولا يسارا كأنما برمجت لوجهة معينة...
كما توجه الصواريخ لقصف المدن لكنها لم تكن صروخًا لقد
كانت المدينة التي قصفت بكل أنواع الألم...
لقد كانت وطن لكنها قاومت ولم تستسلم...
كان لها ياسين درعا وكانت لها نجبية سندا ونعم العمة ابتسمت
لها سارة وكانت لها أختا وظلت كذلك تتأرجح بين السقوط
والوقوف بين الطرق الواسعة للحياة وأزقتها الضيقة، بين

عيونها التي تزداد اتساعا ومشاعرها التي تزداد اندفاعا لا لشيء
وإنما لطبيعتها وبراءتها اللامتناهية والتي ورثتها عن والدها...
هذا الرجل الثري بأخلاقه...
الكبير بمبادئه والنبيل بحكمته...

دخلت الغرفة فوجدتها نائمة، جلست على كرسي بجانبها
تأملها تارة وتارة أخرى تستعيد ذكريات الطفولة والصبا بقلب
مهشم تكسره الحشرات وتكسوه العثرات طأطأت رأسها واضعة
يديها على خديها.. كما لو أنها كانت تريد الاختباء خلفهما...
لم تكن تفكر في شيء سوى أن الحياة تريد أن تأخذ منها كل
الأشخاص الذين تحبهم أمها ووالدها وحتى صديقة عمرها...
وماذا بعد؟

أرادت أن تصرخ بشدة...
أن تبكي بقوة دون أن تتوقف...
أن تحارب الحياة بنفس سلاحها أن تنتحل شخصيتها وتكون قاسية
مثلها لكنها كانت تعلم أنها تراهن في لعبة نهايتها الفشل...
فدموعها دائما تفضحها تشي بضعفها بحنانها...
بجبروت العاطفة التي تجتاحها...
بأي حق تريد أن تنزع هذا الشعور العظيم والإحساس

المرهف بداخلها وتغرس مكانه الحقد والقسوة والكرهية
أحاسيسنا ليست فاكهة مزروعة بأرض الشعور نزرعها كيفما
أردنا ونقطفها متى شئنا...

هي ليست لعبة تستمتع بها أوقات فراغنا وتتركها بزاوية
الغرفة إذا ما غادرنا الضجر...

أحاسيسنا هي تلك الأمطار الساكنة فينا التي لا تتوقف عن
الهطول ولا تنتهي بانتهاء فصل الشتاء كأنما كان هناك شيء
يخالجها سرا يخبرها أن الليل وإن طال فلا بد أن ينتهي ولا بد
لسواده أن ينجلي تشجعت عائدة...

مسحت دمعها وأزاحت يديها عن خدها متأمة سارة من جديد
داعية لها الله أن يشفيها بسرعة...

وبينما همت للخروج كي تسأل الطبيب عن حالتها فإذا به يدخل
بنفسه صباح الخير دكتور...

كيف...؟ لم تكمل جملتها حتى وجدته يقول لها:

تقصدين كيف حالها ابتسمت لتواضعه وبساطته قائلة:

نعم دكتور هل هي أحسن حالا؟

بالطبع هي في صحة جيدة لم يكن الحادث خطيرا لحسن الحظ
فرحت عائدة لهذا الخبر وكادت تطير من الفرحة ولم يعد

وجهها ينم عن الغضب والحقد على الحياة لقد تصالحت معها في أول خطوة مشتتها وهي تغادر المشفى...

ما هذا التناقض الذي لازمها وسيطر عليها...

لقد كانت لتوها تود أن تشتتها وتصرخ في وجهها وها هي الآن تقول في قرارات نفسها...

شكرا لك أيتها الحياة لأن سارة لا زالت تعيش وتحيا فيك هل التناقض فينا عملية معقدة؟

أمر أن التناقض في حقيقته هو ليس إلا ذاك التناغم الموسيقي بين سنفونيات الشعور؟

اتصلت آية صدفة بمنزل سارة إذ بالخادمة ترد عليها مخبرة إياها بالحادث الذي تعرضت له فاجأها هذا الخبر فاتصلت بعائدة التي كانت قد وصلت لتوها إلى المنزل صباح الخير يا عائدة كيف حالك؟

أنا بخير وأنت؟...

لقد مر زمن طويل على آخر اتصال لك أنا منهمكة جدا بالدراسة، هل سمعت بالذي حدث لسارة؟

نعم لقد كنت لتوي عندها إنها أحسن حالا الحمد لله... سأذهب غدا لزيارتها لكن في أي مستشفى هي متواجدة؟ في مصطفى

باشا سنلتقي غدا بإنشاء الله أنا كذلك سأعاود زيارتها إلى اللقاء
أقفلت عائدة الهاتف. لكن نبرة صوت آية الحزينة لم تفارق أذنها...
كان صوتها شجينا منكسرا لربما لوقع الحادثة التي سمعتها عن
سارة و لربما لأشياء أخرى تخص حياتها الزوجية...

سمعت طرقا على الباب فذهبت لتفتح إنها عمته نجيبة جاءت
لتطمئن على ياسين دخلت فلم تجده في سريره اتجهت مباشرة
إلى عائدة أين أخي؟

لقد ذهب إلى العمل ولكنه ما زال مريضا والدي رجل عنيد يا
عمتي...

هو أعند من المرض ابتسمت نجية قائلة:

لا بأس إن كان هذا سيرичه لم تكمل حديثها إذ بالباب يفتح لقد
عاد ياسين من العمل بوجه أصفر شاحب كما لو أنه كان يحضر
إحدى محاضرات الموت بجامعة الحياة لملم نفسه واختزل
ألمه بابتسامة كاذبة نظرت إليه عائدة بتمعن شديد قائلة:

أنت منهك يا أبي ووجهك شديد البياض لقد نصحتك على عدم
الخروج لكنك كنت مصرا على الذهاب، أنا بخير سأستريح
قليلا وسيزول كل التعب أردفت نجية قائلة وشارة الغضب
تتطاير من عينيها لو كنت هنا لما سمحت لك بالخروج أنت

اليوم شريرة يا نجية ضحكت عائدة ونجبية لكلام ياسين سكت الجميع إلا عائدة التي كان صمتها أعزلا أمام الأفكار المتحدثة برأسها والمشاعر المتدفقة بأنهار نفسها نعم...

أحيانا نجد نفسنا وجها لوجه مع حقيقة ما مع مرض ما... يسرق أحلامنا وأفلامنا ويكتب حزنا عميقا على صفحات أيامنا... يدخل بيوتنا بدون استئذاننا لا ليكون زائرا خفيف الظل وإنما ليكون عميلا وفيها لكل أنواع الإساءة ودون اعتذار يخرج مخلفا وراءه خيبات أمل، واحتضارات كان سيكون مصيرها الموت لولا أن الحياة تدخلت لحماية مراماها إستجابةً لهتافات القدر لقد غير مرض ياسين من نظرة عائدة للحياة هاته الفتاة البريئة إلا من عواطفها الزائدة...

لقد أحدث بمعالم شخصيتها انقلابا روحيا واضحا انطبع على ملامحها وتصرفاتها وحتى اختيارها للألوان فهي لم تعد تلبس سوى اللونين الأسود والرمادي: هذان اللونين الغريبيين في تناقضاتها فالأسود وإن دل على الليل فهو كذلك إشارة على اقتراب الصبح والرمادي ولو دل على السحب فهو المنزل الجميل الذي تولد فيه الأمطار فترتوي بنزولها الأراضي العطشى لتبتسم لرؤيته عيون الفلاح الغيور على وطنه وتشهق لمنظره براءة الأطفال.

لكنها وبالرغم من الألم الذي سببه لها مرض والدها إلا أنها لم تنسى المشاكل التي تواجهها سارة بإخفاء أمها عنها الكثير من الحقائق قررت أن تتركه يرتاح قليلا وتطلعه على هذه المسألة المركبة التي تعجز هي وسارة عن حلها وفي نفس الوقت الذي كانت تفكر باستشارته كان هو الآخر يتشاور مع نفسه كي يخبرها بأن أمها لم تمت وإنما طلقها...

وأنه كان من الصعب جدا إخبارها من قبل لأنها كانت أصغر من أن تفهم معنى الطلاق...

أحيانا تخوننا الشجاعة وتنقضنا الجرأة في مواقف معينة نجد نفسنا نهرب من مواجهتها في زمن معين إلى أن يتحول هروبنا إلى إلزامية التحدي في زمن آخر نكون فيه قد استنفدنا كل ما بحوزتنا من بطاقات الفرار دخل ياسين إلى الحمام كي يتوضأ فإذا به يتذكر سارة نادى عائدة بصوت يرتجف فسمعتة أتت إليه مسرعة وقالت:

هل من خطب يا أبي؟

هل زرت صديقتك سارة؟

نعم إنها كما يقول الطبيب أفضل حالا لم يكن الحادث خطيرا انتهزت عائدة الفرصة وأردفت قائلة:

لقد تعرضت سارة في الأسابيع الخيرة إلى مشاكل نفسية عويصة

بسبب أمها يا أبي.

لماذا... ما الذي حدث؟

بعد عودة خالها من الغربة أخبرها أن أمها كانت متزوجة مرتين قبل زواجها بوالد سارة كان زواجها الأول من والد نادر الذي توفي في حادث سيارة والثاني طلقها...

لكنها كانت تخفي كل هذه الحقائق عن سارة إذن نادر ليس أخ حقيقي لسارة؟

اكتتب ياسين فجأة كأنما أراد أن يبكي كان ثمة هناك شيء بداخله يريد أن يبوح ويشكي لكنه اصطدم بجدار حقيقية أخرى لقد كان لتوه يعزم أن يخبرها بالماضي ويزيح هذا القناع الثقيل عن وجهه... هذا السر الدفين الذي عاش كاتما على أنفاسه...

إلا أن الهروب من الحقيقة هو على ما يبدو قدره المحتوم وسره المشئوم الذي يرفض أن يفارقه أحست عائدة بالاضطراب الشديد الذي وقع لوالدها فظنت أنه لا يزال متعبا غيرت مسار حديثها قائلة:

سنؤجل الحديث عن سارة يا والدي في وقت لاحق صلي وادعي لها بالشفاء خرج ياسين من الحمام واتجه إلى غرفته وضع زربيته وحزن عميق يشع من عينيه وهو ساجد تذكر أن الإنسان وهو

ساجد يكون أقرب ما يكون عليه من الله فدعا بملء جوارحه أن يخرج الله من هذه الأزمة ويسهل عليه إخبار عائدة بالحقيقة الكاملة عن أمها فاغرورقت عيناه وشعر لوهلة كأنه يحمل جبلا ثقيلا لا يقدر عليه...

وها هو الآن قد أصبح أثقل وهو يدرك أن ابنته تتألم لما وقع لصديقتها فكيف لو علمت أن والدها الذي طالما اعتزت بنبل أخلاقه ومبادئه وصدقه وصفاء روحه قد كذب عليها كان ياسين يصرخ بشدة دون أن يسمعه أحد سوى روحه الصادقة التي عاشت على أمل الاعتراف الضائع بين حبه لابنته والخوف من المواجهة لم يعد برأسه شيء يدور سوى سؤال واحد لماذا كذبت يا ياسين؟ لماذا كذبت؟

لقد خرج الضمير من قوقعته باكيا متصدعا متضرعا إلى الله أن يسامحه...

لكنه جاء متأخرا بأهات سارة جاء متعثرا نفض غبار الجبن عليه حاملا ندمه بين يديه واهتدى لطريقه التي كان من الأجدر له أن يسلكها قبل سنوات كم أنت غريبة أيتها الحياة...

نخاف فيك من البدايات ونعيش فيك على حذر وترقب من سوء النهايات ونحبذ الجبن أحيانا على البوح والوشايات... لكنها

الأقدار تهزمننا...

عندما تضعنا مجبرين في منتصف الحقيقة استجمع ياسين
أنفاسه وقرر أن يكون قويا ويستبدل كل سنوات ضعفه بلحظة
صادقة وقبل أن ينادي عائدة وجدها واقفة عند باب غرفته
كأنما بروحها بوصلة الشعور استغرب لوجودها...
كانت واقفة صامتة...

فقال اجلسي يا عائدة كنت سأناديك لم تجب بكلمة...

جلست والخوف بعينها تنتظر هذا المجهول...

كأنما أحست بسواده سكت ثم استرسل يقول:

أحيانا يا ابنتي ترغمننا الحياة على الإفصاح بالحقيقة وأحيانا
تجبرنا على إخفائها والإنسان خلق ضعيفا يتعلم من أخطائه
ويتوب من معاصيه ولا يقف إلا بعد لحظات السقوط ولا ينحني
إلا لحمل ثقيل عليه قاطعته عائدة قائلة:

لقد فهمت من حديثك أنك تريد أن تجد لوالدة سارة أعذارا
الإنسان ليس معصوما من الخطأ...

لكن عليه تداركه وتصحيحه قبل فوات الأوان نعم يا والدي...
لكن الكذب يشوه الكثير من جماليات الإنسان و يسلب منه
المصداقية التي أحبه من أجلها الآخرون و وثقوا به احتبست

الكلمات في فم ياسين لكنه تشجع مجددا لو كذبت علي يا

عائدة فهل سأسامحك؟

أنا لا أكذب عليك إلا للضرورة قصوى حسنا...

وإن كذبت أنا عليك؟

سأسامحك بقلب كبير لقد كنت صغيرة يا عائدة...

وكنت شمس حياتي عندما ولدت ولم أشهد قبلك فرحة عارمة

قط تزوجت أمك ولم أعش معها يوما سعيدا لقد كانت

مريضة تعاني ضعفا في الذاكرة فطلقتها واحتفظت بك خوفا

عليك من مرضها ولما كبرت وأصبحت تسألين عنها كذبت

عليك قائلا أنها ماتت لم يعد بفرم عائدة شيء تقوله، سوى

الدموع تكلمت مكانها وتأسفت مكانها فسقطت ورود الفرحة من

مزهرية حياتها...

وتفتحت بداخلها جروح كانت تأبى أن تلتئم...

لكنها استجمعت أنفاسها وقالت: وهي لم تبحث عني؟

كان سيقول لها حقيقة كذبه الثانية على أمها بأن ابنتها توفيت

منتهزا فرصة تواجدها بالمشفى لعلاجها من فقدان الذاكرة لكنه

تراجع فحمل الاعتراف أصبح ثقيلًا جدا أبدا يا عائدة...

لم التقى بها منذ طلاقنا ولا أعلم عنها شيئا انهمرت عائدة بالبكاء

ونزعت غطاء يتمها لتكتسي برداء قهرها مجددا من هذه الحياة...

حملت صورتها بين يديها قائلة:

أين أنت يا أمي؟ لماذا لم تبحي عني؟ كيف تجرأت وقتلت

أحاسيس الأمومة بداخلك حمل ياسين عنها الصورة وقال لها:

هذه ليست صورة أمك إذن من هذه يا أبي إنها مريم المرأة

التي تزوجتها بعد طلاقي أنا وأمك لكنها فارقت الحياة بعد

عامين من زواجنا لقد أحبتك ورعتك وحنّت عليك بطيبة لا

متناهية وسهرت لأجلك الليالي إلا أنها ماتت بسكتة قلبية كما

ماتت أمها من قبل صغرت الدنيا في نظر عائدة وهي تسحب

دلو الحقيقة من بئر الحياة...

وحتى الصورة كانت كاذبة للأسف...

ما أبشعها بندقية الحياة عندما يصوبها نحونا أعز الأشخاص

علينا ليفرغو ما بداخلها من رصاصات ماضيهم في وجه حاضرنا

ويحرقوا كل غابات الحب ليزرعوا شجرة واحدة للحزن نعم... هكذا

أحست عائدة بأن حبها لوالدها تناقص وتهاوى في انحدار شديد...

فمن ذا الذي يعيده إلى قلبها من جديد؟

لكنها عانقته باكية وقالت له:

لقد سامحتك يا والدي...

لقد سامحتك بقلب كبير بكى ياسين كطفل صغير أتعبه المسير...
 قام متثاقلا إلى خزائنه نزع آخر درج بداخلها فاتحا درجا آخر
 وراءه كان سرّياً وصغيراً أخذ صورة أم عائدة ووضعها في يدها
 باكيا هذه هي أمك الحقيقية يا عائدة...
 حملت الصورة وتأمّلتها بعينونها الدامعة فإذا بها تجدها رجاء
 أم صديقتها سارة...
 كم أنت مبالغتة أيتها الحياة....



انتهت.